اقرأ

الدكتور سامي الدهان

شاعر الشعب

دار المعارف بمصر

شاعر الشعب

الدكتور سامي الدهان

شاعر الشعب

اقرأ ١٢٠
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٠ — يناير ١٩٥٣

من رأى « حافظاً » نذيراً بشيراً جائلا صائلا بغير اتئاد

غرِداً كالهزار آناً وآناً حرداً كالخضمّ ذى الأزباد

ينبر النبرة العزوف فما تسـ ـمع إلاّ أصداءها فى الوادى

وكأن الأثـير يحمل منها كهرباء تهزّ كل فؤاد

فهى عزّ للأريحى المفادى وهى ذل للخائس المتفادى

وهى خفق اللواء يحدوه من إيقا ع أبطاله إلى المجد حاد

ذاك أن الروح المردّد فيها روح شعب والصوت صوت بلاد

خليل مطران

العصر

فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كانت مصر مسرحاً لحوادث خطيرة ، لو وقعت فى أية مملكة من ممالك الأرض لأقعدتها عن السعى ، وردتها عن المجد ، وأوردتها موارد البؤس . فقد كانت الدولة العثمانية تحتفظ بالسيادة الاسمية على مصر ، وكانت إنكلترا وفرنسا تعملان على محو الاستقلال ، وتتنافسان فى التدخل بشؤونها . وكان الخديو يريدها للسلالة العلوية موطن الملك ومربع الحكم لا ينازعه فى ذلك منازع .

وكانت خاصة الشعب المصرى موزعة الأهواء ، مقسمة العواطف ، ففريق منها يسير تحت علم الهلال يرفرف فى حماية الإسلام والجامعة المحمدية ويرى فيه رمز الخلافة واتحاد المسلمين . وفريق يتمسك بالبيت العاوى يرى فيه قوة للسلطان واستقلالا لمصر ، وبعداً عن سيطرة الغرب . وفريق ثالث يئس من الأستانة لضعف المالكين فيها ؛ ومل جور المستعمر المستبد لظلمه وجرائمه ، وكفر بالسلطان لتذبذبه بين العثمانيين

والإنكليز ، فآمن بمصريته ، وتعلقت آماله بالاستقلال ووحدة النيل ، فهو لا يرى النور إلا بهما ، ولا يجد عضداً إلا بقوتهما .

وأصاب هؤلاء الأفرقاء جميعاً هزات عنيفة بعثت روح اليأس ، فجنح كثير منهم إلى السكوت ، وجنح فريق منهم إلى موالاة الاحتلال ، وظلت مصر تتخبط فى أمواج السياسة دون أن تبلغ شاطئ الأمانى .

أما عامة الشعب المصرى فقد تأرجحت لهذه الهزات ، وترنحت لهذه النكبات ، لا تؤمن بالأستانة ولا تدين للندن ، ولا ترى الخير ينبعث من أى ميدان فى القاهرة أو قصر من قصور الحكم . فانطوت على نفسها ، وسعت وراء العيش تكدح من غير أن تصل إلى النعيم أو تنعم بالاستقرار ؛ فهى تصبح على وزارة وتمسى على إنذار ، وتروح إلى ثورة وتغدو إلى سجن . وما يلوح بارق الأمل إلا ليختفى فتحول الاستقلال إلى احتلال ، وولد مع الاحتلال الانحلال . عاد الشعب المصرى القهقرى ، وخسر فى الميادين جميعاً ، فقد شهد الديون تتراكم ، والضرائب تتزايد ، والزراعة تتراجع ، والمدارس تتضاءل ، واللغة العربية فى احتضار ، والأخلاق فى خسار . وضاق باضطهاد الغربيين

وظلمهم وخداع الفئة الحاكمة وسياستها الملتوية ، فسار مع تيار الجلاء ، وقام ضد التدخل الأجنبي ، وقدم على مذبح الكنانة ضحاياه بريئة في سبيل مجد يبزغ ، ونور يسطع ، ومستقبل هنيء .

وكانت الحركة الفكرية تصل إلى عامة الشعب عن سبل ألسنة ثلاثة : الصحافة ، والخطابة ، والشعر . وقد جاهدت هذه الألسنة في نصرة مصر حيناً ، وموالاة المستعمر حيناً ، وتأييد السلطان أحياناً . ولكنها على اختلاف مبادئها عملت على إيقاظ الشعب ، وإثارة الشعور ، وبعث المشاكل . وكان جهاد هذه الألسنة مشكوراً أبداً سواء أأصابت في الحق ونصرت الخير أم أخفقت ووقعت على الشر ؛ فهي قد سارت باللغة العربية شوطاً بعيداً ، ونقلت أساليب الكتابة إلى ميادين جديدة . فكان ما نراه اليوم من نثر مرسل يبتعد عن السجع والتكلف ، وما نقرؤه من شعر يتطرق إلى أبواب لا يعرفها أدبنا القديم ، ولا يستغني عنها أدبنا الحديث .

وهذا النثر وهذا الشعر — كما وصلا إلينا — يمثلان هذه الحقبة ، وينيران سبيل الدراسة لهذا العصر ، ويقربان لنا صورة الحياة السياسية والاجتماعية فيها .

وما أعرف شاعراً من شعرائنا خص شعره بأمته وأحداثها فى العصر الحديث كما فعل محمد حافظ إبرهيم ، فقد عاش فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، فسجل الأحداث والكوارث ، وحفظ فى ديوانه يوميات أمته — إذا صح التعبير — ترى فيها أحوال الكنانة وأعراضها ، بشرها وأحزانها ، بمظاهراتها وثوراتها ، بأنينها وشكواها ويأسها وبؤسها ، فكان شاعر الحياة الاجتماعية ، ومحامى الشعب ، وكان مصوراً للآلام والآمال .

لذلك جاء شعره عنيفاً حيناً ضعيفاً حيناً آخر ، فيه رعدة من الأجنبى طوراً ، وفيه رعود على الأجنبى أطواراً ، يصور الزمن الذى قيل فيه ، والميدان الذى انطلق منه ، والبيئة التى صنع فيها ، والتعاليم التى أوحت إليه. وما الشاعر إلا ابن الأرض والبيئة والزمان ، لا يصح أن نضعه فى غيرها ،وأن نحكم عليه بغير منظارها . وبغير ذلك نظلم الشاعر والأدب والحقيقة .

ونحن إنما نريد فى هذه الصفحات اليسيرة أن نبسط حياة الرجل وشعره وأخلاقه وثقافته كما كان لا كما نريد أن يكون . وللتاريخ أن ينصف الأموات من الأحياء .

حياة محمد حافظ إبرهيم

١
ولادته وصباه

ولد محمد حافظ فى سفينة صغيرة (ذهبية) على النيل ببلدة « ديروط » من مديرية أسيوط ، فى الرابع من شهر فبراير سنة ١٨٧٢ — على أغلب الآراء والظن — من أب مصرى هو المهندس إبرهيم فهمى ، وأم تمت بنسبها إلى أسرة تركية هى الست هانم ابنة أحمد البورصه لى .

وتفتحت عيناه على نهر النيل المبارك أول ما تفتحتا ، واستنشقت رئتاه أريج نسيمه منذ ظهر على النور ، فتغلغلت نسماته فى صدره ، وانطبع على حبه ، ولبث طيلة عمره وفيًّا بأرضه ، محبًّا لأهله .

ودرج الطفل مع العام الأول يحبو على أطراف السفينة ثم يقف على سلالمها فى العام الثانى والثالث ، فإذا كان العام الرابع

سيطر على السفينة حزن شامل لم يفهم كنهه الغلام ، فقد قضى أبوه ، وقدر للصبي منذ نعومة أظفاره وحدة ووحشة وفقر وبؤس لازمت حياته ، وطبعت أشعاره بطابعها .

واضطرت الأم أن تحمل وحيدها إلى القاهرة لتعيش فى كنف أخيها المهندس محمد نيازى ، وتعول ابنها ، وتقوم بتعليمه وتنشئته . ودخل الطفل المدرسة الخيرية بالقلعة ، يتعلم القراءة والكتابة وبعض العربية ومبادئ الحساب . وظل يتنقل من مدرسة إلى مدرسة حتى دخل المدرسة الخديوية .

فلما انتقل خاله إلى «طنطا» وانتقل البيت معه ، سافر محمد حافظ مع أمه إلى هذه المدينة سنة ١٨٨٧ وسنه إذ ذاك ستة عشر عاماً .

ويبدو أنه راح يقرض الشعر منذ هذه السن فيتعثر حيناً ، وينهض حيناً بجناحين ضعيفين وثقافة بسيطة لم تصقلها الدراسة المنظمة ، ولم تهذبها الأساليب العلمية ، وكل زاده فيما نظن كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفى . وهذا الكتاب مادة دسمة لنحو اللغة وصرفها ، فيه فنون البلاغة والفصاحة ، وألوان من أمثال العرب وأشعارهم ومختارات من دواوين فحولهم

منذ الجاهلية حتى العصر الحديث . وفيه على ذلك صفحات كثيرة من ديوان محمود سامى البارودى . ولا شك فى أن محمد حافظ قرأه وقرأه ، فصقل به ذهنه ، وروض به حافظته ، وشحذ به لسانه ؛ فهو الكتاب الشامل لعصره يثير القرائح الصحيحة ويشحذ الألسنة الفصيحة . وقد وهب الله شاعرنا الصغير لساناً ناطقاً وذاكرة حافظة ، وذهناً متوقداً ، فأخذ بتقليد الشعراء ، وظل يهذى حتى قال الشعر .

وقد ذكر الذين عرفوا الفتى فى طفولته أنه كان يعنى بالشعر والأدب عناية لفتت الأنظار إليه ، وجمعت القلوب حوله . فكان يسهر الليل فى مطارحة الشعر ومذاكرة نوادر الأدب ، ويسمر فى استعادة جيد القريض وطيب الشعر . وقد كتب الأستاذ عبد الوهاب النجار يحيى ذكرى الشاعر قال :

« فى صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً فى الجامع الأحمدى بطنطا ، وقد سافرت فى أيام العطلة إلى بلدنا القرشية ثم عدت فى أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا ، فإذا بإخوانى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الإهاب جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه وتقديمه إلىّ باسم الأديب الشاعر محمد حافظ

إبرهيم . ولم تمض إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا إليه بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة ، وسرعة خاطر وحضور نادرة » .

ونقل الأستاذ النجار لمحمد حافظ نماذج من شعر يدل على تشاؤم الفتى وتأثره بأبى العلاء :

عجبتُ لعُمرى كيف مُدّ فطالا وما أثّرت فيه الهموم فزالا
وللموت ما لى قد أراه مُباعداً وجلّ مرادى أن أوسّد حالا
فللموتُ خير من حياة أرى بها ذليلا وكنتُ السيد المفضالا

فهذا شعر فتى تظهر عليه ندوب الأسى واليأس والبؤس . ومع ذلك نقل إلينا أنه كان يعبث نهاره بالناس ويلهو بالحيوان فيثير جيرانه ويقلق الناس ؛ فإذا شكوه إلى خاله تبرم بهذه البطالة ، وتأثر لهذا الشاب ما يكاد يربح ما يعينه على العيش ، وخاله مهندس تنظيم ، وموظف متوسط الحال لا يستطيع أن ينفق فى سعة ؛ وليس للطفل مال موروث أو أسرة غنية ، وهما مفتاح العيش فى الشرق ، فاختلفا كثيراً ، وقام بينهما النزاع كثيراً .

وأخيراً آلى الشاب على نفسه أن يهجر بيت خاله ، وأن يقطع دابر الخلاف ، وأن يطرق أبواب الحياة . فلما قرر الهرب كتب إلى خاله بهذين البيتين :

ثقلتْ عليكَ مؤونتى   إنى أراهــا واهيَهْ
فافــرح فإنى ذاهب   متوجِّــهٌ فى داهيهْ

٢
فى المحاماة

لم يكن للمحاماة آنذاك فى مصر نظام محدود أو قانون مسنون ، فقد كانت المحاكم الأهلية حديثة الوجود ، ولم يكن للامتحان مكان فى ذلك العهد ، وإنما كان للناس أن يدافعوا عن أنفسهم أو يوكلوا من يتولج القضايا ويختص بها . وما كان يشترط فى المحامى شهادة أو معرفة ، بل كل ما فى الأمر أنها كانت تعتمد على ذلاقة اللسان وحضور الكلام وسرعة التقليب فى الأمور وفهم المشاكل الناشئة .

لذلك فكر محمد حافظ في أن يعمل بالمحاماة لعلها تدر عليه بعض المال ، فقصد إلى المحامى محمد الشيمى بطنطا ، واشتغل عنده فى مكتبه . وكان يسافر إلى المحاكم القريبة من البلدة ، ويترافع فيها ، لكنه لم يكسب ما يكفيه ، فاختلف مع الأستاذ الشيمى وهجره بعد أن ترك له هذين البيتين :

جرابُ حظىَ قد أفرغته طمعاً   بباب أستاذنا «الشيمى» ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوءٌ فقلتُ له : مِمّ ؟ فقال : من الحشرات واحترابا

وانتقل إلى مكتب المحامى محمد أبي شادى بطنطا فمكث عنده مدة فى سرور وفرح، لأنه وجد ما يبعث على التندر بالأدب ومعالجة الشعر ، ولكن ذلك لم يطل لأن الشاب انتقل إلى غيره من المحامين ، فعمل فى مكتب عبد الكريم فهيم ، ثم فى مكتب إبرهيم الهلباوى . ولا شك فى أنه كان كثير الضجر بالمهنة ، تتطلب إليه العمل والدأب والسفر والمراجعة ، وحافظ فى كل ذلك كسول ملول لا يكاد يعنى بأمر نفسه ، ولا يجد من الصبر ما يدفعه إلى ترتيب عمله وتنظيم عيشه .

ولا نشك فى أنه نظم شعراً خلال هذا العام الذى قضاه مع المحامين وفى مكاتبهم ، ولكن هذا الشعر ضاع فى جملة ما رمى به الشاعر ، تهاوناً بأمره ، واعتماداً على ذاكرته . ولو وصل إلينا لبلغنا بفهم هذه الفترة مبلغاً نصف به حياته فى طنطا .

٣

فى المدرسة الحربية

ضاق حافظ بالمحاماة وأساتيذها ، وبرم بالقضايا والمرافعات ، كما ضاق بكل شىء فى حياته ، ففكر فى أن يتخذ باباً آخر للرزق ، ومورداً مختلفاً للعيش. وعول على أن يقلد محمود سامى البارودى ، فلعله يصبح ضابطاً خطيراً أو شاعراً كبيراً ، تلقى إليه الأمور الهامة ، فتوجه إلى المدرسة الحربية بالقاهرة سنة ١٨٨٨ وعمره إذ ذاك سبعة عشر عاماً .

وكان دخول هذه المدرسة لا يتطلب شهادة ولا يشترط معرفة . وما هو إلا أن يزج نفسه فى غمارها حتى يخرج وعلى كتفه نجمة وفى خصره سيف .

وكان الجيش والمدرسة الحربية قد وقعتا فى قبضة الاستعمار فنقص من وزنهما وعمل على تشويههما ، ووقف رجاله على قتل نشاطهما . وما للاستعمار أن يبعث قوة أو يخلق مصنعاً للرجال . فمال بالجيش حتى قلم أظافره ، وبتر منه الأعضاء الصالحة ،

فأصبح بؤرة للمرض ، وميداناً للتراخى ، وعدة للأجنبى وسلاحاً على المصرى ، يديره ضباط بريطانيون ثقفوا احتقار الشرق وإنكار حقه فى الحياة ؛ فأقصوا جميع الضباط الوطنيين من الجيش ، وأصبح الغرض القضاء على روح الشهامة والرجولة والوطنية . وصار يؤخذ للمدرسة الحربية من ساقطى الشهادة الابتدائية .

كذلك كانت المدرسة الحربية عقب الثورة العرابية ، صورة للنقمة البريطانية على الجيش المصرى الثائر ، فليس فيها إلا ثقافة مريضة ومعارف بسيطة . دخلها محمد حافظ وخرج منها كما دخل ، فلم يتعلق بفن ولم يتعمق فى معرفة . وما لنا لا نعتمد على الشاعر نفسه فى وصف حالها فقد كتب يقول :

« ولو لم أكن متخرجاً فى المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلة الفقر والسؤال ، ولكننى خرجت منها كأنى المعنى بقول من قال :

الجهلُ شخصٌ يُنَادِى فوْقَ قامته
لا تسألى الربعَ ما فى الرّبْع من أحد »

ووصف عمل الإنكليز لخراب هذه المدارس ونقمتهم على الجيش فقال :

« دخلوا مصر وفى جيشها منْ هم أولى سابقة فى الفضل وخصيص فى العلم، ومن حنكته السنّ وغذّته التجربة، وخبطته الحروب ، فكنت ترى فيهم المهندس الماهر ، والكيماوى الباهر ، والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا » فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمامَ سياستهم صفًّا صلداً فزحزحوهم عن أماكنهم حتى أصبح الجيش عطلا من كل رجل ركين .

«ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغذو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها ، وأسرعوا فى سلبها كنز علومها وتجريدها من حلى فضائلها ، حتى أصبحت كالأخيذة السليبة . ثم يتموها أساتذتها ، وأراد ربك فأمست وهى أشبه شيء بمصانع الدجاج ؛ يدخل فيها التلميذ فلا يسلخ ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل . فهو يوم دخل فيها مثله يوم خرج منها ، لا يزيد علمه فى الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه . وما كانت قوة التصوير الشمسى بأسرع فى أخذ الصور من تلك المدرسة فى تهيئة التلامذة للدخول فى الجيش .

« فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت فيها روح

العلوم ونضبت سيول المعارف ، وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة. وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك . وبات يطلبها كل فدْم وجاهل كما تطلب اليوم الضيعة الخربة » .

فى هذه المدرسة قضى حافظ أربع سنوات حتى تخرج فيها سنة ١٨٩١ ، وهو فى العشرين من عمره .

٤
حافظ الضابط

تخرج حافظ برتبة ملازم ثان ، ومن رأى الرجل فى بزته العسكرية ، وقامته المديدة ، وبنائه القوى ، وعضله المفتول ، وشاربيه الطويلين ، والسيف على جنبه لا يعرف أن هذا الضابط يحمل بين جنبيه قلب شاعر وحس أديب .

عين حافظ فى الحربية بعد تخرجه ، ولبث ثلاث سنوات ثم نقل إلى ملاك وزارة الداخلية ، فأرسل ملاحظاً إلى بنى سويف — وكانت الداخلية تأخذ من الحربية ضباطها لأن مدرسة البوليس لم تكن قد أنشئت فى ذلك الزمن .

ثم انتقل بعد شهور كمعاون بوليس بمركز الإبراهيمية ، وعاد بعد سبعة أشهر إلى وزارة الحربية . وأرسل إلى السودان سنة ١٨٩٦ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

ولا بد من الوقوف فترة قصيرة عند هذا العهد فقد زادت فيه بلية مصر بالاستعمار ، وقال المؤرخون لهذه الحقبة : إنه لم

يكن ثمة عدل ولا قانون، ولا قضاء ولا حرية ولا مساواة ؛ وكان الضرب بالسوط شائعاً يستعمله الحكام لتحصيل الأموال أو أداة للقسوة والتعذيب . وكان النفى إلى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية ، أو لتقرير ، أو لمحضر يوقعه من دان بالاستعمار وآمن بالإنكليز .

واعتزّ الأجنبى بنصره فى الثورة العرابية وثورة المهدى ، وعززه تدخل أوربة فى فقر مصر المالى ، فاستخف بالشعب وعمل على قمع حركاته بالشدة ، فاستسلم كثير من الناس إلى اليأس . وأخذ كبراء البلاد وموظفوها ، ومثقفوها وأعيانها وخاصتها يتنكرون للحركة الوطنية ، متأثرين بهزيمة الثورة وانتصار الاحتلال . وأصبح كثير منهم يبتغون الزلفى للحاكم المستعمر . وأصبح الجيش البريطانى صاحب الحول والطول فى البلاد كلها . وأصبحت الصحافة ، وسيف الظلم مسلط على الرءوس ، فى خوف وتردد خشية المصادرة والتعطيل . وساد النفاق ، وعم الرياء وتفشى الخنوع والملق للرؤساء ، وأصبح للصغار فى النفوس الموطن والمستقر .

كل هذا والأمم الأوربية ساكتة راضية عن موقف الإنكليز

وجيشهم يفعلون من غير وازع ويأمرون من غير معترض .

في هذه الفترة العصيبة أرسل حافظ إلى السودان وهو فى رقة إحساسه ودقة عواطفه ، وعظيم شعوره بالألم والبؤس ، وشديد تعلقه بالقاهرة وأهلها ، فأصبح يكتوى بنار الغيظ ونار القيظ .

وكان الإنكليز يشتدون على المصريين خاصة ، ويسعون فى سياسة التفريق إلى تفضيل السودانيين لعل المصريين ينفرون من السودان إلى غير رجعة فيخلو لهم العيش ، ويصبحون السادة الحاكمين من غير رقيب أو عذول .

فلما دخل حافظ السودان عرف ذلك كله فوصف الإنكليز فى الجيش يقول :

« ومن لم ير نعيم الدنيا أو يذق عيش الترف فليقدم الجيش وينظر إلى الإنجليزى فى لين عيشه ورخاء باله ، بين متبسم زمانه وعز سلطانه ، إذا صاح ابتدرت صيحته الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف ؛ وإذا لبس القلنسوة كانت لها فى النفوس رهبة التاج . وإذا غضب تقطعت لخوف بطشه الأوداج » .

ثم وصف نظرة الإنكليزى إلى المصرى وتفضيله السودانى

عليه لا لشيء إلا ليخلق التفرقة وتشتيت الشمل قال :

« فأيّ مصريّ لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ لون جلده بسواد جدّه ليخطو إلى السعادة هذه الخطوة ، ويحظى عند القوم بتلكم الحظوة ، والإنجليزى فى الجيش مشغوف بحبّ الأسود من الألوان ».

ثم يصف موقف المصريّ من المستعمر فيقول :

« لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر ، وبات مهضوم الجانب غير مرعيّ الجناب ، يعتوره الذلّ والخور ، وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مرّ به يوم لحق به النقص .

« ينظر المصرى إلى الإنجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ، ومنحه نعمة التنفس فى جوّ يتنفس الإنجليزى فيه ، وهو إنْ خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر » .

ثم يقول عن أخلاق الإنجليز :

« والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلا من الهند ، فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سبّه » .

لذلك شقى الضابط الشاعر بهذا الإقليم وهذا الوسط ؛ وراح يرسل زفراته الواحدة تلو الأخرى يتحرّق على الخروج من هذه البيئة ، فلقد أصبح حاله إلى همّ وتسهيد إذ يقول :

فأمسكا الرّاح إنى لا أخامرها … وبلغا الغيدَ عنى سلوة الغيد
ثم امضيا ودعانى إننى رجلٌ … قدْ آل أمرى إلى هم وتسهيد

وبلغ به اليأس أقصاه حتى لقد أصبح يصرخ بلهجة المعرى قائلاً :

لم تلدنا حوّاء إلاّ لنَشْقى … ليتها عاطلٌ من الأولادِ
أسلَمَتْنا إلى صُرُوفِ زَمانٍ … ثمّ لمْ تُوصِهَا بحفظ الوِدَادِ

وزاد شقاؤه فراح يستنجد بإخوانه ، ويستغيث بأصدقائه ، وفيهم الأستاذ محمد عبده ، فقد كتب إليه من السودان يصف حاله :

« فلقد حللت السودان حلول الكليم فى التابوت ، والمغاضب فى جوف الحوت ، بين الضيق والشدّة ، والوحشة والوحدة . لا ، بل حلول الوزير فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف الحساب ،

بين نارين نار القيظ ونار الغيظ
فناديتُ باسم « الشيخ » والقيظُ جمرَةٌ
يذيبُ دماغ الضَّبّ والعقلُ ذاهلُ
فَصِرْتُ كأنى بين رَوْض ومَنهل
تدبّ الصّبا فيه وتشدو البلابلُ »

وأرسل كذلك إلى صديقه محمد بيرم يشكو ويندب حظه :

نزحتُ عن الديار أروم رزقى   وأضرب فى المهامه والتّخوم
وما غادَرْتُ فى السودان قَفْراً   ولم أصْبغ بتربته أديمى
وهأنا بين أنياب المنايا   وتحتَ براثن الخطْب الجسيم
ولولا سَوْرةٌ للمَجْد عندى   قنعتُ بعيشتى قنع الظّليم

وكتب كذلك يصف سعيه وإخفاقه ، ويرسم فقره وإملاقه فقال :

وما أعذرت حتى كان نعلى   دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيّرتنى الشمسُ عبداً   صبيغاً بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الإملاق ظفرى   وحتى حطم المقدار نابى
متى أنا بالغٌ يا « مصر » أرضاً   أشمّ بتربها ريح الملاب

وليث الأمر وقف بالضابط الشاعر عند الهجير والرياح

السافيات ، وظلم الطبيعة وقسوة البشر ، ولكنه ساقه إلى أمر حاسم يختم به شقاء السودان ليفتح له شقاء آخر .

فقد حدث أنّ فرنسة قامت تشارك الإنكليز فى اقتسام السودان لعلها تحصل علّى نصيبها من غنائم الاستعمار ، فأرسلت قوة تحتل قسما من السودان ، ولكن الإنكليز حاربوا زميلتهم وحشدوا لها قوة بالغة تفوقها فى العَدد والعُدد ، فانتصروا عليها فى « فاشودة » سنة ١٨٩٩ .

وأصبحت إنكلترا بعد هذا الحادث تخاف القلاقل فى السودان ، وقرّرتْ أن تستبد به دون سواها ، وعملتْ كحاكمة مستعمرة ، فأخمدتْ كل حركة تبدو ، وقتلتْ كل شعور يلوح فى الجيش والأمة . وأخذت تجمع السلاح من الجنود خوفاً من ثورتهم وفرقاً من انتقاضهم . أما الجنود المصريون فخافوا على أنفسهم أن يبقوا بغير سلاح فى المهمه البعيد ، فاجتمعوا ووقر فى نفوسهم أن يبلغوا الشكوى والاحتجاج . ولكنّ الدهاة الإنكليز عرفوا كيف يفسدون الضمائر ويشترون القلوب ، فاستجلبوا السودانيين واتخذوا منهم بطانة سوء تدلهم على أسماء المتآمرين . وهنا نترك الكلام للشاعر الكاتب نفسه يصف لنا كيف وقع

التحقيق فى القضية :

« ولما اهتدى ذلك المحقق إلى مالا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ؛ وجمع فى خريطته ما يربو على الثمانين اسماً ، خف إلى كبيره وقد حمل ظلماً فوالذى علم آدم الأسماء كلها ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه » .

فلما استكثر الضابط الكبير الأسماء المعروضة عليه طلب أن يضرب عليها بالقداح ، فأصاب سوء الطالع شاعرنا حافظاً مع سبعة عشر ضابطاً آخرين ، فوقع عليهم الاختيار والتهمة ، فقال فى ذلك : « ولقد كنتُ أحد أولئك الذين ضرب عليهم بالقداح وهأنذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية » .

وسيق الضباط إلى مصر وحيل بينهم وبين العمل أو الرجوع إلى الجيش ، وأحيلوا على الاستيداع . وعاد حافظ بينهم إلى القاهرة مثقلا بالهم ، مشبعاً بالبؤس والشقاء وظلم الدنيا ، وقد أحيل على الاستيداع فى شهر مايو سنة ١٩٠٠ بعد أن سلخ فى السودان سنوات عجافاً لم تغنه ولم تسمن من جوع ، ومع ذلك لم تطل إذ عاج إلى الاستيداع ، فأضحى مرتبه أربعة جنيهات ليس غير .

٥

فى صحبة الإمام

يقول الأستاذ داود بركات فى ذكرياته عن حافظ :
« عرفته فى أواخر سنة ١٨٩٩ ، وقد جاء من السودان ، أو بالأحرى جيء به منه ، حيث كان ضابطاً فى الطوبجية — المدافع — بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشر مع الخديوى عباس الثانى ، ومكاتبته سرًّا بعد افتتاح الخرطوم . عرفته وشوقى يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملا بالأهرام ، لأن حافظاً ورفاقه أحيلوا إلى الاستيداع بطلب اللورد كرومر — وكيل الدولة الإنكليزية — وكان يطلب من الخديوى إعلان استنكار عملهم ، والخديوى يماطل ويتردد ، فلما أحيلوا إلى المعاش اهتم الخديوى بأمرهم ليجدوا مرتزقهم » .

وهذا يوحى إلينا بأن حافظاً كان ضحية من ضحايا الخديو عباس الثانى ، وأنه كان يعتمد عليه فى إيجاد مرتزق له ، فراح

شاعرنا يتقرب منه ، ويرسل إليه الرسائل الشعرية – إذا جاز التعبير – فقد قال فيه يهنئه بعيد الفطر سنة ١٩٠١ :

مليكٌ أباح العيدُ لثمَ يمينه ... ويا ليت ذاك العيد يبسط أعذاري
ويحملُ عنى للعزيز تحية ... ويذكر شيئاً من حديثى وأشعارى

ويتضاءل حافظ أمام الخديو وشاعره فيقول :

لم يبق «أحمد» من قول أحاولهُ ... فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب
فلستُ ممن سمَتْ بالشعر همتهم ... إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربى
لكنّ عيدك يا «عباس» أنطقنى ... كالبدر أطلق صوت البلبل الطرب

فهو يمجد أحمد شوقى ويرفع شأنه ، كأنه يريد أن يظهر له عواطف الشكر لما صنع ، ويدفعه إلى أن يعينه عند الخديو وأصدقاء الخديو ، فيصف شعره بالضعف والتخاذل أمام شعر شوقى ، وكأنه يطمئن زميله إلى أنه لن ينافسه فى منصبه عند الملوك .

وقد رأينا أن وساطة الخديو وشاعره لم تنفع فى عون حافظ ، فلبث من غير عمل ، وركن إلى البطالة ، فتعلق بأذيال الفقر والحاجة ، وعاد إلى بؤسه وهمومه يتمنى أن لو مات قبل هذا ؛ فيقول :

لا تطعمانى أنياب الملام على هذا العثار فإنى مهبط العجب
وَددتُ لو طرحوا بى يومَ جئتهم
فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب

وهو يرى أن الحرية قد فقدت فى مصر ، وأن الحظ قد مات ، وأنّ حال بلاده فى أسوأ ما يستطيع حتى ليبكى لوضعها فيقول :

لكننى غيرُ مجدودٍ وما فتئت يدالمقادير تُقْصينى عن الأربِ
متى أرى النيل لا تحلو موارده ُ لغير مُرْتهب لله مرتقبِ
فقد غدتْ مصرُ فى حال إذا ذكرت
جادتْ جفونى لها باللؤلؤ الرطبِ
إذا نطقتُ فقاعُ السِّجْنِ متّكأ
وإن سكتُّ فإنّ النفس لم تَطِبِ

ويشكو حافظ انصراف مصر عن شعره وستطول شكواه من ذلك ، فهو يرى أن المصريين مقصرّون فى إكباره وجعله فى المرتبة اللائقة به . ولعل سبب ذلك أنه لم يكن يتصل بالمجتمعات التى تسيغ الشعر وتحفل بصاحبه ، ولم يكن يطرق موضوعات تتصل بحوادث الساعة — كما نقول اليوم .

فلما اتصل حافظ بمجلس الإمام محمد عبده أفاد منه ثقافة وعلماً ، وأفاد منه صلات وجاهاً ، فتعرف إلى سعد زغلول وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وإسماعيل صبرى ومحمود سامى البارودى، وخليل مطران ، وعلى يوسف ، وحفنى ناصف . . . وهؤلاء كانوا عيون الأمة ووجوه الشعب وألسنته الناطقة وصحفه السيارة، فاستمع إليهم يتناقشون فى القضية المصرية ، وأخذ عنهم هذه الشكوى والوطنية فأفرغ الموضوعات فى شعره وساقها فى قصيده ، فإذا مصر تستمع له عاماً بعد عام حتى سارت بشعره المجتمعات والصحف وردده الخطباء وراح الناس يتغنون به ويعجبون بصاحبه .

ولكن ذلك كله لم يجد على حافظ ، ولم يدر عليه المال فلبث فقيراً معوزاً ، منذ عودته من السودان سنة ١٩٠٠ حتى انقضت عشرة أعوام دخل بعدها الوظيفة .

وإذا كانت هذه الحقبة من الزمن لم تنفع فى مال حافظ وثروته فإنها نفعته فى علمه واتصاله بالموضوعات الهامة فقد أصبح صديقاً للإمام حتى قال فيه : « وكانت لى عليه دالة ترفع عنى مؤونة الاحتشام ، وكنت أتبسط معه على الحديث » . وقال

كذلك يصف هذه المجالس وما كانت تثير فى ثقافته وأدبه ، وما كان لها من أثر فى توجيه شعره :

« فلقد كنتُ ألصق الناس بالإمام، أغشى داره ، وأردُ أنهاره، وألتقطُ ثمارَه فما سمعته يخوض فى ذكر السياسة — قبحها الله — ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ، ويتنقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ، ويسمو بأنفسهم إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . . . »

وقد يخطىء الذين يظنون أن حافظاً سياسىّ يعمل فى الأحزاب الوطنية ويقول باسمها ، فهو ينشد شعره باسم الأمة ، ولا يجد فى قوله سياسة ، متبعاً فى ذلك خطة أستاذه الإمام محمد عبده وقد وصفها بقوله :

« يلقى فى الأزهر دروس التفسير ، وفى داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله ، فإن كانوا يسمون تلاميذه أحزاباً ، ويقسمون تعاليمه أبواباً ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران . على أنه كان من أشد الناس تبرماً بالسياسة وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها . »

ولا يخطىء الدّارسُ حين يرى فى مجلس الإمام مدرسة

عالية أو جامعة ثقافية ، يتخرج فيها الطالب كما يتخرج فى الجامعة سواء بسواء . ولا حرج إذا وجدنا فى صلة حافظ بهذه الدروس والمجالس صلة الطالب بالجامعة ، فقد أخذ بها وعب من منافعها ، واستفاد من فوائدها . فكان يقرأ فى « المنار » شروحه ، ويحضر مجالسه اللغوية ، فصهر شعره بما حفظ وما وعى ، وما أكثر ما يحفظ حافظ وما يعى ، فصقل ألفاظه ، ونمق مفرداته ، وجمل تعابيره حتى كان شعره فى العيوق جزالة ومتانة .

وقد حفظ الشاعر للإمام هذه اليد حتى آخر أنفاسه ، ولبث ملازماً له فى السفر والحضر . وتابعه فى خطته من حيث صلاته مع السلطان والمستعمر والأحزاب : وكان بين اللورد كرومر والإمام تفاهم إلى حد الصداقة ، لعل الذى دفع إليه خوف الإمام من الخديو وتشبثه بكرومر يحميه من شره وغدره .

والناس يعرفون أن الشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه سنة ١٨٨٩ آثر الراحة والبعد عن السياسة والعمل للعلم والأخلاق والدين ، فأخذ عليه الناس تخلفه عن الفكاح السياسى وانقطاعه عن أستاذه جمال الدين الأفغانى فى المراسلة . وعدوا ذلك عليه

ضعفاً وتراجعاً وتخاذلا . وزاد فى اتهامهم أنه كان مسموع الكلمة عند الحكام المستعمرين ، فتابعه حافظ إبرهيم فى سياسته هذه ، ولم يشتد فى التقريع بالإنكليز مشايعة له أول الأمر ؛ ونحن نجد فى « ليالى سطيح » تفسيراً لسياسة الإمام ، قال حافظ :

« ولولا أن الإمام مادّهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنها شرة القوم ، ويصلح ما تفسده أهل الدسائس . فكم زحزح عنا حادثاً ودفع كارثاً . ولو كان حيًّا يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى دنشواى لرأيت غير ذلك الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد بذلك التهديد والوعيد » .

لذلك وقف حافظ من الإنكليز موقفه يعاتب وينقد ويسخر ويطلب الرفق والشفقة بهذا الشعب . فلما قضى الإمام سنة ١٩٠٥ فقد بفقده سنداً عظيما ، فراح يعمل فى الترجمة والكتابة والقريض على مدى واسع ، متنقلا بين أصحاب الإمام وأصدقائه ممن أصبحوا أصدقاءه وخلانه ..

٦
مع المرأة

فى سنة ١٩٠٦ ، أى بعد عام من وفاة الإمام رأى شاعرنا أن يطلق حياة الوحدة ، ففكر فى الزواج لعله ينتقل من بيت خاله ، أو يتخذ له مسكناً ينفرد به ، أو ينشئ أسرة تتصل بينه وبين أهلها روابط القرابة والعيش . فتزوج من أسرة بحى « عابدين » ؛ ولكن هذا الزواج لم يمتد أكثر من أربعة أشهر انفصل الزوجان بعدها إلى غير اتصال .

ونحن نجهل كل الجهل ما كان من أثر هذه المرأة فى نفسه وعيشه ، فهو لا يتحدث عنها بشىء ، ولا ينبئنا المتصلون به عنها فى شىء .

ونكاد نظن أن هذا الشاعر لم يخلق لنظام أو قانون يفرضه الزواج ويمليه البيت ، لذلك نحسب أنه آثر الحرية والانطلاق ، وأحبّ الفوضى ، فعاد إلى حياة المقهى وإدمان الشرب ، فكأنه

أسف لهذا الاتصال أو كأنه أخفق فى هذه التجربة ، فلم يعد إليها طيلة حياته . ولا نعرف أثراً لامرأة أخرى فى عيشه ، فقضى من غير أن يترك ذرية أو خلفاً يحمل هذا الاسم .

ولا نرى فى ديوانه حبًّا لامرأة أو تحبباً أو تغزلا بأنثى ، فقد حرمته الطبيعة هذه الناحية من الشاعرية ولعل سعيه وراء العيش وأمجاد الحياة ومجالس العلماء والشعراء قد دفعه عن المرأة والتلهى بذكرها أو العيش إلى جانبها .

وفى سنة ١٩٠٨ توفيت أمه ، مثقلة بالأتعاب والهموم التى أورثها ابنها ، فهى لم تفتح عينها على بحبوحة العيش منذ انتقل زوجها ، ولم تسعد برفاهية المال منذ نشد ابنها وترعرع ، فهو أبداً ينتقل من عمل إلى عمل ، ومن مكتب إلى مكتب حتى قضت وهو لا يعرف راتباً معيناً إلا راتب المعاش وهو ضئيل .

وتوفى خاله محمد نيازى ، فعاش مع زوجة خاله الست عائشة هانم ، فكانت تعنى به ، وتدبر أمره ، وظلت فى قضاء شؤونه حتى قضت قبيل وفاته بثلاث سنين .

والواقع يقتضينا أن نشير إلى أن محمد حافظ إبراهيم وهب روحه للوطن وأهله ، وما انصرف إلى حياة الأسرة إلا أشهراً

معدودة ، قضى فيها سحابة الليل فإذا طلع النهار انسل إلى المقهى يمضى فى صحبة إخوانه ساعاته ، ويقتل الوقت — كما يقول الغربيون — فى جدّ القول وهزله ، ما يفتأ جياشاً بصوته الجهورى فى المجالس والحلقات ، حتى لقد ظن به الناس أنه مستهتر قليل الاكتراث بالأسرة وما يتصل بها من روابط ووشائج .

٧
فى دار الكتب المصرية

ملّ حافظ هذا اللون من العيش ، وآثر أن يدخل فى وظيفة تعينه على الحياة ، فسعى عند ناظر المعارف آنذاك أحمد حشمت فعينه رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية فى شهر مارس سنة ١٩١١ ، بمرتب قدره ثلاثون جنيهاً . وتنقل فى مراتب الدار حتى أصبح وكيلا لها ، وحصل على مرتبة البكوية من الدرجة الثانية وأنعم عليه بعدها بنيشان النيل من الدرجة الرابعة . وأما عمله خلال هذه الحقبة فقد وصفه الدكتور زكى مبارك بقوله :

« استطاع أن يتخلص من قيود وظيفته تخلصاً تامًّا فكنت لا تراه فى دار الكتب المصرية إلا زائراً ، ولم يستطع الأستاذ لطفى بك السيد أن يحتجزه فى تلك الدار إلا فى اللحظات التى يحتاج فيها لمعاونته عند مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق . وكان

– رحمه الله – يخرج من بيته فيظل يتنقل من ناد إلى ناد ومن منزل إلى منزل باحثاً عن أصفيائه الذين ألفوا ما ينفحهم به من طيبات الأحاديث » .

وقال الدكتور طه حسين يصف حافظاً كذلك :

« فى سبيل الله هذه الأعوام الطوال التى قضاها حافظ فى دار الكتب لا يعمل شيئاً ولا يقول شيئاً ؛ وإنما يقضى صباحه فى الدار يعبث بالموظفين ، ويتندر عليهم أو على باب الدار يدخن سيجاره الضخم أو فى قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه فى الأندية الخاصة أو العامة » .

وهكذا يتفق الكاتبان فى وصف حياته بدار الكتب ، لا يستقر فيها ولا يطول مقامه بها ، على عادة الموظفين آنذاك . تختلف على مكاتبهم أكواب الشاى والقهوة ، وتنطلق من غرفهم ضحكات تتلوها ضحكات ، وقد تجمع ثلاثة أو أربعة حول مكتب واحد ، أو ساروا فى موكب إلى رئيس الدار ووكيلها يسلمون فى الصباح ، ويتندرون فى ساعات الفراغ ؛ وما أظن إلاّ أن أكثر أوقاتهم فراغ . يدور الحديث عن الحرّ أو القرّ ،

والسياسة الداخلية أو الخارجية ، والعلاوات والترقيات ، وقلما ينشب خلاف حول مشكلة لغوية أو طريقة علمية للطبع ، أو صحيفة عالمية فيها مقال ثقافى أو أدبىّ .

فى هذه البيئة عاش حافظ عشرين عاماً ، يعبث كما يعبث الموظفون ويتندر كما يتندرون ، ويدخن سيجاره غير ملتفت إلى رقيب أو رئيس ، فقد أرضى مدير الدار فعاونه فى كتاب الأخلاق وغيره ، وله أن ينصرف بعدها إلى لقاء إخوانه فى نواديهم وبيوتهم يتحدث إليهم فى كثير من الحذر والرفق بوظيفته وراتبه .

وقد قال خلال هذه الفترة شعراً كذلك . ولعله كان يلتقط مواد شعره فى جلساته بمقهى « جراسمو » أو « متاتيا » — كما يروى الأستاذ المازنى — وكان خلال هذه الجلسات ينظم الشعر على عادته ، يفيض فى كل مكان كما حدثنا مطران ، فتقتتل على ذهنه ولسانه صور الشعب وحياته . ويسمع عن أخبار السياسة الخارجية وحوادث العالم وكوارثه فينظم فى ذلك كله شعراً . فهو يتحدث عن فظائع الطليان فى حرب طرابلس الغرب ، ويصف وحشيتهم فى ضرب بيروت ، ويحيي الطيارين العثمانيين.

ويندد بغليوم إمبراطور ألمانيا لإعلانه الحرب الأولى . ولما تألف الوفد المصرى ، وتحركت مصر إثر القبض على سعد وصحبه بدأت مظاهرات سلمية ، وأضرب الطلاب عن تلقى الدروس ، وخرجت السيدات فى ١٦ مارس ١٩١٩ بمظاهرة عامة ، فوصف حافظ قيام الجيش ضد النساء ، وتشتيته شملهن فى سخرية لاذعة قال :

فليهنأ الجيش الفخو   ر بنصره وبكسرهنّه
فكأنما الألمان قد   لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا « بهندنبرج » مخ   تفياً بمصر يقودهنّه
فلذاك خافوا بأسهن   نّ وأشفقوا من كيدهنّه

والذين قمعوا المظاهرات من وراء ستار هم الإنكليز ، والذين أمروا بالوقوف ضدها هم رجال الحكومة ، وحافظ موظف فيها ، وأسلوبه فى هذه القصيدة لا يكاد يختلف عن أسلوبه فى غيرها : سخرية قوية وكلمات مقرعة من غير أن يعمد إلى التهديد والوعيد .

ولما قضى سعد زغلول رثاه حافظ إبرهيم فى حفل كبير أقيم فى ٧ أكتوبر ١٩٢٧ ، فما خاف موقعه من الحكومة ومحله من

الوظيفة ومكانه من الراتب ، وما جهل أن الذى يرثيه زعيم قاوم الإنكليز ، وثار عليهم وطالبهم بالاستقلال والجلاء ، فنفوه وعذبوه . وإنما قال حافظ فى جرأة وصراحة يخاطب هؤلاء المستعمرين وهو موظف كما خاطبهم وهو فى حل من كل قيد قال :

وأتيتم بالحائمات ترامى ... تحملُ الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانبَ النيل وعـــداً ... ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبىّ ... أو رأيتم منا إليكم مثابـــا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها ... إن عند العرين أسداً غضابا

هذا هو الموظف بدار الكتب المصرية يعود مع تصفيق الأيدى وصيحة الحناجر إلى مكانه من الدار فى اليوم التالى ، عزيز النفس ، كبير الثقة ، وقد أدى إلى قومه ما أدى من قبل ، لم تمنعه أذناب الحراس والشرطة والسعاة والدساسين من قول الحق والدفاع عن مصر وبكاء رجالها الأفذاذ الوطنيين .

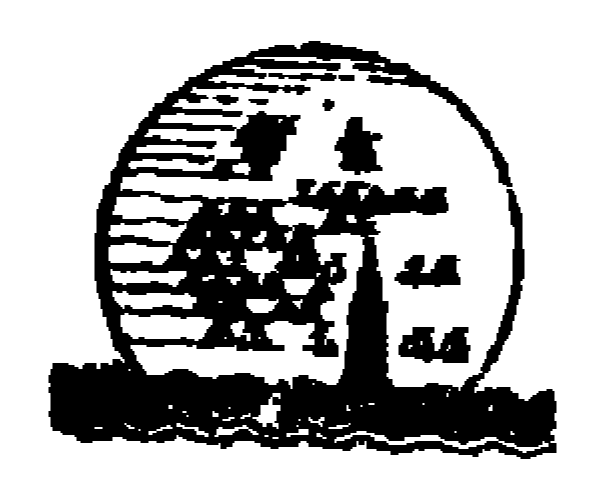
وقد لبث عشرين عاماً لم يفتر ولم يسكت ، على عكس ما قال النقاد فيه ؛ ولعلهم لو قرءوا الديوان وأنعموا النظر فيه لعاجوا معجبين بوطنية حافظ وشاعريته .

والذين ينقدون حافظاً يفهمون الوطنية والشجاعة على غير ما يفهمها الرجل ؛ وقد كفانا هو نفسه تعريف الشجاعة فقال وهو يرثى محمد المويلحى سنة ١٩٣٠ :

يا شجاعاً وما الشجاعة إلا الصبـــــر لا الخوض فى صدور الصعاب

فهو كاتب وشاعر ، ولم يدّع أنه كان زعيما وطنيًّا أو قائداً حزبيًّا . ولعله سمع النقد من حوله ، وبلغه أنه ما يفتأ ينوح ويبكى ويشكو ويتأسى فقال فى ذلك :

النّوح فى الجلى اجتهاد مقصر ألفى دُعَاءَ الصَّبرِ غَيرَ مُجَابِ
فأنا الذى يبكى بشعرٍ خالدٍ يَبْقَى على الأجيال للأعْقَابِ



٨

وفاته

ظلّ حافظ يندب مصر ورجالاتها واحداً بعد واحد حتى أحس بطول الرحلة وعظم المسافة. وشعر فى أواخر حياته بأنه يجب أن يستريح بعد عناء السفر ، فكثيراً ما ردد هذا الملل وهذا الوقوف يبكى أحبابه متلهفاً فى كل يوم ، فقد تفرقوا وبقى وحده ، لأن المنون أخرت يومه .

وكان ينتابه المرض الحين بعد الحين فيلزم فراشه خائفاً ، ثم تعود إليه الصحة فيلبث قلقاً أبداً كلما زارته بوادر الضعف وتقلبت عليه عوارض الأمراض ، ولكنه لم يكن يركن إلى بيته طويلا ولم يقعده الضعف كثيراً .

وبعد خمسة أشهر من إحالته إلى المعاش اعتلّ جسمه ولم يلازمه منزله مع ذلك ولم يلبث فى فراشه ، وفى ذات ليلة دعا

صديقين من أصدقائه إلى تناول الطعام معه ، ولكنه لم يستطع مشاركتهما ، فتمدد على مقعده ، وبعد انصراف صديقيه أحس بالتعب ينهك قواه ، فاستدعى الخادم ليناوله الدواء ، فلم يخفف عنه الألم . واستدعى الطبيب إلى منزله بكوبرى القبة ، ولكنه وصل والشاعر فى النزع الأخير لا يقوى على كلمة الوداع ، فلفظ أنفاسه صباح الخميس ٢١ يوليو ١٩٣٢ ، وقد ناهز الستين من عمره .

ونعاه إلى مصر فى الساعة الخامسة صباحاً صديقه مدير المطبوعات آنذاك إسماعيل شيرين ، فانتشر الخبر فى القطر المصرى ، وشيعت جنازته فى الساعة السادسة ، ومشى وراء نعشه جمهور كبير من الأعيان والأدباء ، وحف بالنعش صديقاه عبد العزيز البشرى وخليل مطران ، فبكيا حتى بللا جدثه الطاهر ، وبكى الناس لبكائهما . وسار النعش حتى جامع الكيخيا حيث صلى عليه .

وسار به موكب السيارات إلى مدافن أهله فى مقابر السيدة نفيسة فوورى التراب ، ورثاه على القبر الأستاذ عباس محمود

العقاد ومحمد الهراوى . ووقف صديقه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين يتقبل فيه العزاء .

رحم الله الرجل رحمة واسعة ، فقد كان جريدة مصر الناطقة ، ولسانها المبيّن ، وشاعرها الاجتماعى ، وترجمان بؤسها وآلامها .

٩
شخصيته وأخلاقه

عاش حافظ إبرهيم غريباً عن الحياة البيتية لم يطل زواجه ولم يرزق ولداً ، ولم يحس طعم الراحة والنعيم ، وإنما كان ملجؤه المقهى وملهاته الشيشة والسيجار . وقضى وليس من أسرته من يقوم بأمره أو يحدب عليه ، أو يبثه شكاته وأوجاعه ؛ وذلك كثير على شاعر مرهف الحس . لذلك كان يضيق بالناس والحياة ، ويتبرم أبداً ، ويشكو دائماً ، وينظر إلى الأشياء والحوادث من نواحيها المظلمة القاتمة ، فكان ناقماً على الدهر ، وتحولت نقمته إلى استخفاف بالدنيا لأن شكاته لم تُجْدِ وصرخاته لم تنفع ؛ فراح يضحك من بؤسه وشقائه ، ويتخذ سبيله إلى الضحك على الناس والسخرية منهم والعبث بأوضاعهم ، والتندر عليهم . ولذلك كان وحده المتكلم فى المجالس ، يتحدث فلا ينفد حديثه ، ويقول فلا ينتهى قوله ، ويروى مما يحفظ فما يقف

سيله ، وبهذا نفق سوقه فى المجالس ، ونادم الوجهاء والأعيان ، وأضحك غيره من بلية أو رزية فى حين كان قلبه يتألم ويبكى .

وصفه الأستاذ عبد العزيز البشرى فقال فيه :

« حافظ إبرهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذلك مجابهة لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة . . .

« ... وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً مما أصابت يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الألف جن جنونه أو ينفقها فى يوم إن استطاع ، فإذا استغلقت عليه أحياناً وجوه السبل لإتلاف الأموال عد هذا أيضاً من معاكسة الأقدار. ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته فى باب شكوى الزمان وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ، ويتفقده تفقداً إيثاراً لتجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام. وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظاً يحققها بيده إذا قصرت فى تحقيقها الأيام » .

والدكتور طه حسين يوافق الأستاذ البشرى على رأيه فى دعوى البؤس عند حافظ فيقول :

« كان البدع فى أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء الحال والافتنان فى شكوى الناس والزمان . وكان ذلك بدعاً فى العصر الأول من هذا القرن . وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروّجه » .

وكيفما كان الأمر فى هذا البؤس فإن حافظاً قد ذاق ألواناً من العذاب والفقر والفشل . فقد أراد أن يكون شاعر الخديو فخاب ، وأن يصبح شاعر الإسلام فحيل بينه وبين الخليفة العثمانى ، وأن ينفرد بلقب شاعر مصر الأول فلم يوفق .

وحسبنا أن نستعرض أمانيه فى شعره لنرى خيبة الأيام فيها فقد كتب يخاطب الخديو فى عامه الجديد :

عسى ذلك العام الجديد يسرنى ببشرى وهل للبائسين بشير
وينظر لى رب الأريكة نظرة بها ينجلى ليل الأسى وينير

وأنشد فى حفل تكريمه بنزل «الكونتيننتال » يعدّد ما فعل فى سبيل مصر وما لقى من جزاء قال :

وأكرم حتى كأنى نبغت وقمت لمصر بما قد وجب

فماذا أتيت من الباقيات　　وهذا شبابي ضياعاً ذهب
عملتُ لقومىَ جهد المقلّ　　على أنه عملٌ مقتضب
وهل أنا إلا امرؤ شاعر　　كثير الأمانى قليل النشب

. . . .

فلا السبق لى فى مجال النهى　　ولا لى يوم الفخار الغلب
ولا أنا من علية الكاتبين　　ولا أنا بالشاعر المنتخب

ويعود فى كثير من شعره إلى شكوى دهره وأهله فيقول :

عقّنى الدهر ولولا أننى　　أوثر الحسنى عققتُ الأدبا
أنا لولا أن لى من أمّتى　　خاذلا ما بتّ أشكو النُّوَبا

ويقول كذلك :

قد كنتُ عوناً للضعيف وإننى　　ضعيف ومالى فى الحياة نصيرُ

ثم يقول فى مكان آخر :

ومالى صديق إن عثرتُ أقالنى　　ومالى قريب إن قضيتُ بكانى

ويخيل إليه أن حظه فى الآخرة سيشبه حظه فى دنياه فيسائل إسماعيل صبرى وهو يرثيه :

أتحت التراب يُضام الكريم　　ويشقى الحليم ويخفى القمر
ويهضم حق الأديب الأريب　　ويطمس فضل النبيه الأغرّ

وقد كان يرضيه أن يدعى البؤس وأن يسمى بائساً فيردّد هذه اللفظة فى شعره ، ويردّدها فى نثره فيقول فى صدر ترجمته لكتاب « البؤساء » وهو يهديه إلى الإمام محمد عبده سنة ١٩٠٣ :

« إنك موئل البائس ومرجع اليائس . وهذا الكتاب أيدك الله قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين ... وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب » . ويقول فى المقدمة : « وضعه صاحبه وهو بائس ، وعرّبه معرّبه وهو بائس » ، ثم يقول إنى ما عربته « لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء » .

ويقول كذلك فى كتابه « ليالى سطيح » :

« أديب بائس ، وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث فلم تجد له عزماً ولم تصب منه حزماً » .

ويقول فى هذا الكتاب :

« ونحن بحمد الله فى بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن صاحبها حظيظاً عند تلك الصحف حتى إذا ظهر أثره فى الناس قامت تقرظه بصنوف المديح والإطراء » .

ويضيف إلى ذلك قوله :

« ولو لم أكن خامل المنزلة بعيداً عن الشهرة لكنت أول الصائحين غداً بما وقع فى نفسى » .

وقد حاول كثير من النقاد أن يفسروا كلمة البؤس بأنها معنوية وليست مادية ؛ فإن الرجل كان يملك وينفق ، وكان سخيًّا على إخوانه يفى أجر ما ابتلعوا وما شربوا فى المقهى . وكان سخيًّا على نفسه يمتطى سيارة أجرة فى تنقلاته ويشترى السيجار بثلاثين قرشاً ، ويقرض إخوانه مبالغ لا يسأل عنها ولا يحاسب فيما آلت إليه . وقد قرر بعضهم أن لحافظ شخصيتين متعاكستين : أولاهما مرحة فرحة حين يلقى إخوانه ويحدث أقرانه ، وأخراهما حزينة بائسة حين يتحدث فى شعره ونثره فيشكو ويبث حزنه وألمه .

وقد روى الذين عرفوه أنه كان فى السودان على أسوأ حال من الشقاء — كما رأينا — ولكنه كان يداعب صديقه الدكتور إبرهيم الشدودى الرمدىّ الشهير ، وقد نشرت مجلة « سركيس » مداعبات شعرية لطيفة للرجلين يشك قارئها بأنها لشاعر يكتوى بنار الغيظ والقيظ .

وقد قال الأستاذ سلامة موسى فى حافظ :

« أما حافظ إبرهيم فكان من الجواهر التى لا تزال تلمع وتسطع فى ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم ، يصدم بل يخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة .

وكان وطنيًّا يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه فى أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : (إنّ أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب) . وهو عندى ذكرى تترنم بها نفسى » .

وقال الأستاذ البشرى فيه :

« وحافظ لم يكن متحجباً ولا منقبضاً عن الناس ولا برماً بلقائهم وغشيان مجالسهم وفسح مجالسه لهم ، والتبسط بألوان الحديث معهم ، بل لقد كان فياضاً ثرًّا متدفقاً يسمح بطرائفه كما يسمح بماله وبطعامه ، ما يضنّ على أحد بما طالت يده

ولا بما يطول لسانه » .

وأحاديثُ الرجل ونكاته ونوادره غدت مضرب الأمثال بين الذين عرفوه . فقد نقل لنا معاصروه كثيراً منها . ذكر الأستاذ حسن الحطيم بعضها قال :

« خرج حافظ إلى مقهى الجندى فى الأوبرا ، وكان يتردّد عليه أخيراً من داره بالجيزة عصر كل يوم يدفع أجرة للعربة أكثر من ثلاثين قرشاً ذهاباً وجيئة ليدخن نرجيلة هناك فى حوالى خمس دقائق ؛ ثم يدفع ثمنها لخادم القهوة ، وينقده أكثر من ثمنها نظير خدمته وينصرف .

والتقى به إذ جلس فى ذلك المقهى أحد أصحاب الصحف الأسبوعية وقال له : إنما كنت أتفقدك لأقترض منك جنيهاً أنا فى أشد الحاجة إليه . فضحك حافظ وقال له : عمرك أطول من عمرى » .

ثم أضاف الأستاذ الحطيم نكتة أخرى قال :

« أذكره وقد رأى شابين أحدهما وسيم الطلعة والآخر دميمها ، فقال من فوره للدميم مشيراً لصاحبه الوسيم : هكذا أبناء الأمهات الذين تدفع المهور الغالية لأمهاتهم . كما لن

أنسى طرفة لأحد أدبائنا الأفذاذ إذ بادره بقوله : وعلى هذا الأساس تكون المرحومة والدتك قد دفعت (دوتا) للمرحوم والدك» .

« وسمع حافظ أن إمام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً . فلما التقى إمام بحافظ دلف إليه فى شأن مادى . فقال حافظ : والله يا مولاى كما خلقتنى » .

وأما كرمه وسخاؤه فقد تحدث عنه الأستاذ الحطيم قال :

« وإنى لأذكره فى جلسته فى بار اللواء وقد التف من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون ، وداروا حوله فى شبه حلقة ، وحافظ لا ينقطع (الجرسون) عن التردد على مجلسه ذهاباً وجيئة ، فإذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير » .

وقد روى المازنى خبر مجلس ضمه فى قهوة (جراسمو) مع الشاعر ، فرأى إمام العبد يقبل على حافظ فى لهفة وينحنى عليه فى رجاء ، فيدس حافظ يده فى جيبه ، ويخرج حافظة كبيرة يدفعها إلى إمام فى صمت ، وإمام يأخذ منها بضعة جنيهات ثم يرد الحافظة .

وقال المازنى عن أخلاق حافظ :

« إنه لم يكن يمدح أحداً فى وجهه أو فى غيبته نفاقاً أو

إشفاقاً ، فقد كان جريئاً مطمئناً إلى طريقته فى الشعر ، راضياً عنها ، غير راغب فى التحول إلى سواها ولا مستعد لذلك ».

ويصف المازنى نفس حافظ فيقول :

« كماء النبع الصافى الذى لم يمترج بعد بتراب الأرض وأقذارها ، وكانت فيه على إسرافه وجوده قناعة وصبر عجيب وحياء شديد من الشكوى أو التململ . وكانت رجولته تستنكف من ذلك وتخشى سوء تأويله » .

وكتب الأستاذ داود بركات يصفه :

« كان شخصيته بارزة ، وأول الأدلة على بروز شخصيته أنك إذا التقيتَ به مرة واحدة كانت هذه اللقيا الواحدة كافية لأن تطبع فى ذهنك صورة جسمه القوى العضل الطويل العريض المتناسق المتلائم الأعضاء ، ورقة صوته وغنته ، وحركة يديه الفصيحة ، وتهدّل جسمه إذا مشى على حركة يديه كمجذفى السفينة وإرسال عباراته فى التبسط أو فى الجواب كأنما كل نبرة توكيد جازم قاطع لا يقبل جدلا ولا حواراً » .

ويمضى الأستاذ داود بركات فى وصف وطنية حافظ ودينه فيقول :

«أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها إلا دينه المحمدى . فلك من حافظ ما شئت إلا أن تنال من هاتين الخلتين دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية إلا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيد بهما» .

والذين يقرءون الديوان يجدون التسامح فى كل صفحاته فلم يكن حافظ يحمل على المسيحية أو اليهودية ، وإنما كان على عكس ذلك يدعو إلى التآخى بين المسلم والمسيحى ، فيهيب بالأقباط أن يحبوا المسلمين ، وأن يخلصوا لهم الود ، فما بين الشريعتين من تنافر أو تخالف . وكان كثيراً ما يشيد بصداقته للسوريين المسيحيين ويمحضهم الود والإخلاص ، ولا يرى وجودهم فى مصر إلا أنهم مع إخوانهم المصريين يعملون لرفعة الوطن العربى ، فالشام والكنانة أختان تميل كل منهما إلى خير الأخرى ، وليس من الخير أن ترى مصر فى السوريين منافسين أو غرباء . وقد ألحّ فى ذلك حتى امتدح الجالية السورية كلها ، وقال فى مطران وشبلى شميل وجرجى زيدان وأصحاب المقتطف ودار المعارف ، واعترف أنه اغترف

من علمهم وقبس من فضلهم، وأشاد بأياديهم على مصر ، فهم يعملون فى جدّ ، ويسهرون على أن تكون أعمالهم كاملة غير منقوصة .

وقد تحدّث فى « ليالى سطيح » فأحسن الحديث عن السوريين ورأى أنهم جديرون بالحب حقيقون بالود ، وأنه لا ينقصهم إلا أنهم لا يحسنون التنكيت ولا يجيدون التبكيت ، وأن لهجتهم وحدها هى التى تختلف ، وفيما سوى ذلك فللشامى من مصر وطن ومربع ومكان ، وللمصرى أن يقلد الشامى فى نشاطه وأن يحذو حذوه فى جدّه .

وأما الغرباء فى رأى حافظ فهم هؤلاء الذين يستغلون مصر فى غير فائدة لمصر ، ويعملون فيها فيسدون مواطن الكسب وطرق العيش على المصريين . وهو يهاجم الإنكليز لأنهم غرباء عن الديار مختلفون فى العرق والنسب . وهو شديد التعصب للأدب العربى واللغة العربية يفضلهما على آداب الأمم الأخرى ولغاتها . ويجد فى أخلاق الغربيين بإيطاليا وإنكلترة ما يجب أن يقلده المصريون المعاصرون من حبّ للعمل وسعى وراء النظام ، وترك داء التواكل والإهمال .

١٠

ثقافته وأدبه

لم يفد حافظ من المدارس التى دخلها ثقافة عميقة واسعة وإنما أخذ ببعض الكتابة والقراءة ، وتعلق بحفظ الشعر والنثر ، وشحذ لسانه وحافظته بهذه المجالس التى كان يعيد فيها ما حفظ ويكرر ما وعى قلبه . وقد كانت ذاكرته مضرب المثل بين أصحابه حتى لقد قال الأستاذ البشرى يصفه :

« يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جمزاً حتى يأتى على غايتها ، ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك فى أنه كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال فإذا حافظ يروى بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه

بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والإسفاف » .

بهذه الذاكرة النادرة حفظ صاحبنا أكثر ما قرأ من كتاب « الوسيلة الأدبية » أو « الأغانى » لأبى الفرج ، أو من دواوين الشعراء ، أو من كتاب « المكافأة » أو غيرها من كتب وقعت له ، فأصبح صدره يعجّ بمتنخل الشعر والنثر فى ذوق عظيم واختيار لطيف ، ولو قدّر لكاتب أن يجمع من صدره ما وعى حافظ إبرهيم لخرج بديوان شبيه بكتاب الحماسة أو بمختارات البارودى .

وقد قال فى ذلك الأستاذ البشرى :

« وإذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق ، وهيىء لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصبّ على سمعك عصارة الشعر العربىّ وأبدع ما انتضحت به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعدّ بحق حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربىّ عرف إلى اليوم » .

وقال فيه خليل مطران :

« حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ، ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها » .

ولكنّ شاعرنا كان ملولا قليل الصبر لم يسع إلى التحبير والتأليف والترجمة إلا فى ظروف خاصة ؛ وفيما عدا ذلك فإننا نظن أنه كان يكره النظام والتقييد والجلوس إلى عمل معين ، فلم يكن يسجل شعره ولم يكن يجمع أقواله ، ولولا الصحف لضاع ديوانه ، ولولا أنه طبع هذه الكتب الصغيرة فى حياته لفقدت كذلك من المكتبة العربية وفقد معها خير كثير . وإذاً لبقى لنا من حافظ هذه الصورة القديمة للأديب يدير المجلس بنكاته ونوادره ، ويوزع فى جمله أطيب القول من من نثر وشعر ، فيسكر الناس بحديثه ويطربون لقوله ، فإذا انفض السامر ضاع الكلام مع الريح .

ولكننا نحمد الله إذ هيأ لنا مجال القول فى نثره وشعره ، فقد ترك لنا الرجل من هذا وهذا . وقد بدأ أول كتبه فى الترجمة عن الفرنسية فى الأخلاق ، نشره بعنوان « التربية الأولية » وهو فى شكل سؤال وجواب عن الواجبات البيتية والاجتماعية والقومية ؛ ظهر فى جزءين .

* * *

وعرّب بعده عن الفرنسية كتاب « البؤساء » لڤيكتور

هوغو ، أخرج منه جزءين صغيرين اختارهما حافظ من أصل كتاب كبير . وقد بذل فى الأسلوب جهداً غريباً ، فقد لبث يقلب العربية ومفرداتها وصورها واستعاراتها حتى خرج به عن أسلوب شاعر فرنسه ليلبسه ثوباً أموياً فى البؤساء بعيداً عنه كل البعد ، لاصلة بينه وبين الأصل إلا تشابه الأفكار والحوادث . وأما ما سوى ذلك فقد كتبه حافظ ليعرض فيما نرى قوة بلاغته ، وشدة فصاحته ، وعظيم غناه بالمفردات والتراكيب ، فغدا آية من آيات الأسلوب العربىّ القديم لا يقع من نصوص القرن العشرين إلا بالأسماء الأعجمية الموزّعة فيه .

ولن نضرب الأمثلة على جمال الأسلوب ومتانته ، فذلك يضطرنا إلى إثبات الكتاب كله ، فكله حسن بارع مصقول فذّ . ولكنه كل شيء إلا أن يكون تعريباً أو ترجمة . ولا يضير حافظاً فى هذا تضاؤله فى الفرنسية ، فلعله عمد إلى ما كان يصنع أبناء زمانه فى ترجمة روائع الغرب . ولعلهم كانوا يرون فى الترجمة أنها فكرة ينسجها العربى بعد أن يطرح النصّ الغربى جانباً . وما يستطيع أسلوب حافظ أن يلوّن الأشخاص

أو يبدّل من لهجاتهم أو يصطنع تقليد عباراتهم فيسهل حتى يصوّر أسلوب الشحاذ والمجرم ، ويتعمق حتى يتشبه بأسلوب المحامى العالم ، فذلك يستطيعه ڤيكتور هوغو وحده فى أسلوبه الفرنسى ، ويخفق فيه حافظ إلا إذا كان ينشئ رواية جديدة للبؤساء على غرار الشاعر الفرنسى .

وقد صدر الكتاب فتناوله الدكتور طه حسين بالنقد ثم قال :

« فلست تقرأ فى كتاب من هذه الكتب التى تصدر فى هذه الأيام أسلوباً أمتن ، ولا تركيباً أرصن ، ولا لفظاً أحسن اختياراً ، وأشد ملاءمة لمعناه واستقراراً فى نصابه مما تقرأ فى هذا الجزء من كتاب البؤساء » .

وقال فيه الأستاذ عباس محمود العقاد بعد نقده :

« فلا خلاف فى أنه ذخيرة طيبة بين ذخائر اللغة العربية وصفحة نادرة من صفحات البلاغة فيها . ولا نغالى إذا قلنا إننا نرى الترجمة العربية أعلى طبقة فى البلاغة من طبقة بعض التراجم الإنكليزية فى لغتها » .

وقد اتفق الكاتبان الناقدان على بعد ما بين الأصل والترجمة

ولكنهما حمدا للمغرب أسلوبه فى النثر ، فقد حلق فيه تحليقاً أناف فيه على تراكيبه فى شعره .

* * *

وألف حافظ بعده كتيباً عنوانه « ليالى سطيح » جعله فى وصف ما كان يدور بمصر من أحداث وحوادث ، فوصف الإنكليز فى السودان ، ورسم عيشه فى الجيش المصرى ، وتحدّث عن كتاب قاسم أمين ، ورأى أن النساء الغربيات سيطالبن برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات ، ثم تعرّض للسوريين فى مصر فانتصر لهم ، وأشاد بخدمتهم للسان العربىّ ، وأفاض فى الحديث عن أحمد شوقى وأدبه ، ووازن بينه وبينه على لسان الكاهن سطيح ، ثم تحدث عن الإمام محمد عبده وواسع علمه وبارع سياسته نحو الإنكليز . ونثر بين أجزاء الكتاب ما للمصريين من عيوب . وهذه المواضيع نفسها طرقها حافظ فى ديوانه فأوسعها بلاغة وبياناً من شعره . فهو هو فى أفكاره لم يتسع أفقه ولم يختلف نثره عن شعره إلا حين نعدّ الشعر منحصراً فى بحور « الخليل بن أحمد » : ولولا ذلك لتشابه الديوان وهذا الكتاب . ففى « ليالى سطيح » سجع

وجمل قصيرة ، وتراكيب شعرية ، وخيال جيد . وقد جعله على أسلوب المقامات فجارى كتاب المويلحى « حديث عيسى ابن هشام » ولكنه بذّه فى الأسلوب مما يرفع من مكانة حافظ فيجعله فى صدر الكتاب الناثرين للقرن العشرين ؛ ولا يعيبه إلا ضيق الصفحات وقلة الموضوعات .

ثم عرّب حافظ كتاباً فى الاقتصاد بالاشتراك مع زميله الشاعر خليل مطران ، وعنوانه : « الموجز فى علم الاقتصاد » للمؤلف الفرنسى پول لروا بوليه — Paul Leroy Beaulieu وجعله فى خمسة أجزاء ، وقدّمه إلى وزير المعارف أحمد حشمت وكتب مقدمته حافظ إبرهيم بأسلوبه المسجع ، وحشر فيه كل ما فى قاموس العربية من مفردات غنية تقابل الكلمات الفنية فى الاقتصاد . فجعل للدارسين فى هذا العلم اصطلاحات وتعابير متينة تتفق مع الفرنسية حيناً ، وتختلف عنها حيناً آخر . وكلّ ما رمى إليه حافظ قوة اللغة ومتانة التراكيب على عادته .

* * *

وأما السفر الخامس الذى وصل إلينا عن حافظ فهو ديوانه وسنعرض له فيما يلى . ولكننا قبل أن نختم عن ثقافته

وأدبه ومؤلفاته نحبّ أن نورد كلمة الأستاذ البشرى عن مكتبة حافظ بعد أن عرفنا مدارسه ومجالسه قال :

« إن حافظاً قبض إلى رحمة ربه وليس فى داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغانى — طبعة بولاق القديمة — وكتاباً أو اثنين فى الفرنسية وأثارة من الأقاصيص (الروايات) العصرية المترجمة إلى العربية فى لهجة أدنى إلى العامية ، فلقد كلف دهراً بقراءة هذه الأقاصيص حتى إذا غادر داره دسها فى جيبه ليقرأها كلما تهيأ له ذلك » .

وهذا دليل جديد على أن حافظاً لم يستق ثقافته من المدارس ولم يأخذ علمه عن الجامعات ، وإنما لقن نفسه الشعر والنثر ، وتعلم فى مجالس الإمام محمد عبده ومن كانت تضمه مجالس الإمام أكثر ما علم عن اللغة وفقهها . وأضاف إليها قراءته للكتب القديمة يعتمد عليها كلما واتاه الصبر ، وسكنت ثائرة نفسه ، حتى قضى عمره وهو يتتلمذ على الناس والحوادث فكان منه شاعر الشعب ، نشأ فيه ، وعاش معه ، ثم نطق بلسانه .

١١
ديوانه

وُلد حافظ على نهر النيل – كما رأينا – وتنقل عليه من مصر إلى السودان فشهد من روائع لوحاته وعظيم مشاهده ما يبهر الطرف فى الإصباح والإمساء . تشرق عليه الشمس فتنبعث الألوان زاهية ترقص على أمواهه ، وتختال بين الظلال من خلال النخيل الباسق ، وتغيب عنه فتسبح العين فى سحب رقيقة تحيط بالشمس الحمراء وهى تحتضر مع المغيب ، فتعيش النفس فى سحر مثير ووحى جميل .

وتمتد الصحراء المنبسطة إلى غير نهاية على شطئان النيل ، وتنعكس عليها أنوار الشمس ، وتضيع فى طياتها ألوان السراب فتبدو كأنها الأبدية أو كأنها البساط الذى يغطى أرض مصر فى رفق ودعة ، وسحر وفتنة .

وأما المعابد المزروعة هنا وهناك من أرض الكنانة فى

الشمال والجنوب فهى تذكر بأمجاد المصريين الذين استغلوا التراب والماء والصخر ، ونحتوا من الطبيعة أهراماً تناهض السماء وتشهد بالخلد والصبر ، وجمال الهندسة وقدرة الفن ، وهى كذلك سحر مصر وخلودها .

والبحر الأبيض المتوسط يتلقف مياه النيل العذبة ، ويبتلع ما يحمل إليه هذا النهر « نيلٌ مبارك الغدوات ، ميمون الرّوْحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر » فيسكر البحر بالغذاء والنماء ، ويظل أبداً بين مدّ وجزر يقبّل أقدام مصر ، ويرتد عنها ليعود إليها ، مسحوراً مفتوناً ، وهذا كله مساعد للوحى والإلهام .

كل هذه المشاهد الخلابة باعثة على الشعر حقيقة بالخيال خلّدت منذ فجر الإنسانية وشباب الدنيا شعراء وكتاباً وفلاسفة وفنانين كانوا مفخرة التاريخ المصرى وقلادة الثقافة الإنسانية .

وكل هذه المشاهد كانت جديرة بأن توحى إلى الشاعر المصرى المعاصر لوحات تخلده بين أقرانه ، فيها اعتزاز بالقديم يحيى النخوة فى الجيل المصرىّ الجديد ، وفيها جمال

وفتنة تحركان النشوة فى النفس والموسيقا فى الشعر والفتنة فى القول . ولكنها على ذلك كله لم تبعث فى شاعرنا محمد حافظ إبرهيم إلا أبياتاً متفرقات انفلتت من لسان الشاعر ، فكأن الطبيعة لم تنقش فى ذهن هذا الشاعر ذكرى قوية إلا كما ينقش الإزميل فى الماء أو القلم فى الصحراء .

مرّت هذه المشاهد عابرة فى ذهن شاعرنا فلم تمكث ولم تحرّك خياله لأن الرجل لم يتخذ من الهرم درساً أو من النيل صورة ، فلم يهتم بالأرض والماء والمشيد من الصخر ، فلذلك عبقرية أخرى لم تكتب لحافظ ، وإنما كتب له أن يهتم بالقوم الذين يعيشون بين ظهرانى النيل والهرم والنخيل ، فالتفت إلى حاضرهم البائس وعيشهم اليائس ، وقد غمّه المستقبل فانصرف إلى التفكير بهذه الأمة يريدها كالغرب نهوضاً أو كاليابان بعثاً ، فتعمل على وحدة الوادى من منبعه إلى مصبه ، تحت تاج واحد ، فى حرية مطلقة وإخاء جميل ونشاط فى الحياة .

ولكنه كان يعوج إلى البكاء والنواح والتشاؤم حين يجد بُعْدَ ما بين الماضى البعيد والحاضر القريب . بذلك لم يكن

له من رحلاته بين شمالى الوادى وجنوبه إلا لوحات يائسة . فلما استقر فى مصر ، وسكن إلى حدائقها وميادينها ، فمرّ بالأزبكية والخليج المصرى ، ورأى الماء والشجر يتعانقان ، ثم وقف على الجسور يشهد النيل والأنوار ترقص على أمواجه لم يثر فيه ذلك أيّة قافية . حتى ليخيل لقارئ الديوان أن شاعره عاش فى المقهى أو فى منزل الإمام محمد عبده أو أخلد إلى بيته أو دار الكتب فلم تكتحل عيناه بمشهد الفلاح يغترف ماءه من النيل أو منظر الفلاحات يحملن جرارهن على رؤوسهن فى طول فارع وقامة فاتنة. ولم يخلبه مرأى القوارب على النيل أو مشهد الأشرعة ينعكس عليها نور الشمس أو ضياء القمر فترسم لوحات من الطبيعة بارعة ، فلم يقل كما قال عمرو بن العاص : « فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل ». وكأنه لم يسهر ليله على ضوء البدر يرسل نوره على عشرات المآذن ، وهى كالمسلات المزروعة فى قلب الأحياء ينعكس عليها الضياء ، وتنبق من خلاياها صيحات الإيمان فى قلب الليل .

كل ذلك لم يكن لحافظ إليه من سبيل ، كأنّ الطبيعة لا تحدّثه ولا يحدّثها ، أو كأنه وهب خياله وشعره للمصريين يناضل عن عيشهم بلسانه ، ويحارب عن ضعفهم السياسى ببيانه ، فقضى عمره محامياً لامعاً عنهم ، كلما وقعت جريمة هبّ لاتهام الأجنبىّ وذيوله ، ووقف للدفاع عن الضعيف والفقير والبائس . وكلما قام مصرىّ لعمل الخير أو هبّ شرقى لتسجيل المآثر فرح حافظ وراح يشيد بالشرق والوطنية والإسلام. أما هؤلاء الذين كانوا يقعون فى ساحات الموت من بنى قومه الأفذاذ فكان يبكى لبعدهم عن ميدان الكفاح وقد جالوا فيه وصالوا ، فيترحّم عليهم ويسجّل مآثرهم ، ثم ينبرى إلى نفسه فيجد فى الموت مهدّداً لا يبعد أن يقرع الباب وما هو إلا أن يستجيب للنداء ، فهى سنة الكون ولن تجد من سنة الكون مهرباً .

كذلك كان حافظ وبهذا التفكير أرسل ديوانه قصيدة بعد قصيدة على مرّ السنين ، ينشره حيناً فى « المنار » وحيناً فى « المجلة الجديدة » ، فقام بجمعه صديقه وصفيّه محمد هلال ، واستأذنه فى نشره ، فأذن له لما بينهما من ودّ قديم ، فعمل الرجل على

شرحه والتعليق عليه حتى أصبح فى أجزاء ثلاثة صغار .

وقامت مطبعة أخرى بإضافة ما فات هذه الطبعة ، ولكنها لم توف على الغاية ، ولم تجمع بين دفتى طبعتها كل شعر حافظ ، ثم قامت وزارة المعارف بطبعه فكلفت أساتيذها بالتعليق عليه ونشره . فجعلته هذه اللجنة على أبواب ، واستقصت ما وقعت عليه من شعر حافظ ، ولكن أنى لها أن تستنفد شعره وقد أهمله صاحبه ونسيه أصدقاؤه ، وأنى لها أن تبوّب قصائده ؛ وفى المدائح شكوى ، وفى الرثاء مدائح ، وفى الإخوانيات سياسة ، وليس من سبيل إلى الإحسان فى ديوانه إلا إذا قام به الناشر بترتيب الشعر على السنين . فقد كان حافظ فى شعره سجلاً للحياة التى عاصرها ، بل هو مدوّن يوميات هامة يحسن أن يضعها المحقق على ترتيب ولادتها لتظهر لنا كيف عاش الرجل وشعره سنة بعد سنة ؛ وكيف كانت الأحداث تكرّ على مصر ، وما هى صورتها فى شعر المصريين ، وكيف كان صداها فى دواوينهم ؟ !

وكيفما كان الأمر فإنّ للرجل ديواناً ينيف على خمسة آلاف بيت ، أكثره فى المدائح والتهانى وفى السياسيات

والمراثى ، وأقله فى الشكوى والوصف والخمريات والغزل والأهاجى ، طُبع فى خمسمائة صفحة ، وقيلت أحسن قصائده سنة ١٨٩٥ وسنّ الشاعر أربع وعشرون سنة ، ونظمت آخر أبياته سنة ١٩٣٢ قبيل موت الشاعر ، وقد نيف على الستين .

فالديوان يضمّ حوادث مصر خلال ثلث قرن أو تزيد . فما هى هذه الحوادث التى استلفتت نظر الشاعر وسلكت إلى قريحته ، وسالت على قلمه فسجّلها شعراً ؟ وكيف وفّق الشاعر إلى هذا التسجيل ؟

إنّ ديوان حافظ إبرهيم يصوّر ثلاث مراحل : أولاها مرحلة السودان ؛ وثانيتها مرحلة البطالة ؛ وثالثتها مرحلة الوظيفة .

أما مرحلة السودان ففيها قلق واشتياق إلى مصر ، وفيها شكوى مريرة ومدائح يرسلها إلى أصحابه لعلهم ينقذونه من ورطته ؛ وهو فى هذه المرحلة مدّاح يرفع بممدوحه إلى قمم الثناء ، وهو راثٍ يتنكر للزمان وصروفه ، فيرى الدنيا دار شقاء ، ويجد أن الإنسان خلق للفناء . وأعظم قصائده فى هذه الفترة ما كتب به إلى الإمام محمد عبده وما مدح به

محمود سامى البارودى . وهو فى شعره لهذه المرحلة يصوّر بؤسه وشقاءه وفناء ثيابه وعظيم بلواه .

والمرحلة الثانية تبدأ بعودته إلى مصر سنة ١٩٠١ ، وفيها يخاطب الخديو عباس الثانى فى قصائد عدّة يرجو بها الخير لنفسه ولأمته ، ويخاطب عبد الحميد فيصف فرح الشرق بخليفة الإسلام ، وينظم فى الإنكليز فيرى فيهم دهاء ومضاء ، ويجد الخير كل الخير فى اتقاء شرهم ، ويأخذ عليهم مهاجمة العربية الفصحى واتخاذ الإنكليزية مكانها فى المدارس والدوائر . ويتحدث عن الإمام محمد عبده فيشكر له فضله عليه وعلى المصريين والمسلمين ؛ وهو فى كل ذلك يهاجم عيوب المصريين واستخفافهم بفطاحلهم وشعرائهم وانصرافهم عن تقدير نوابغهم ويريد منهم أن يقلدوا اليابان . وهو فى هذه الفترة غزير الشعر ، يمدح سعد زغلول وهوغو والمويلحى وإسماعيل صبرى ، ويشكو كرومر وحادث دنشواى ؛ ويرثى الزعماء والأصدقاء كمحمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل وتولستوى ورياض باشا ويهتم بالمشاريع الثقافية والعمرانية كرعاية الأطفال والجامعة المصرية .

والمرحلة الثالثة تبدأ بدخوله دار الكتب المصرية سنة ١٩١٢ وفيها يمدح ويهنئ ويرثى ويشجع ، ويندد كذلك بعيوب أمته ويتحدث عن الحروب وطغيان الطليان . ويحيى خليل مطران ويمدح شوقى وأصحاب المقتطف ، ويهنئ السلطان حسين وسعد زغلول ، ويمدح فؤاد الأول ، ويرثى الطيارين ، وزيدان ، والسلطان حسين ، وباحثة البادية ، ومحمد فريد ، وإسماعيل صبرى ، وسليمان أباظه ، وسعد زغلول ، وأمين الرافعى ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد المويلحى ؛ ويشجع رعاية الأطفال ونادى الألعاب ، ويسخر من الإنكليز حين مظاهرة السيدات وفى رثاء سعد .

* * *

هذه هى أغراض الديوان لم تخرج عن التهانى للخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء ، والمديح لإخوانه وأصدقائه ، والرثاء للأعلام المشاهير ، والتشجيع للمشاريع ، والشكوى من عيوب أمته ، والتنديد بالإنكليز . وهكذا نرى أنه اهتم بالسياسة الداخلية والاجتماعية ونصب نفسه للحديث عن الشعب المصرى

وخصّ يراعته برفعة الوطن وتنقية أخلاقه ، وبعث مكارمه ، لم يُعمل فى ذلك حاسة السمع أو حاسة البصر والشم — كما يقولون — فلم يحدثنا عن موسيقا الطبيعة فى مصر وعن زهرها ونورها ، ونيلها وهرمها ، وصحرائها وبستانها ولم يصف لنا من خلال نفسه إلا الشكوى والبلوى .

١٢

ألوان شعره

نشأ حافظ كما نشأ غيره من متوسطى الحال ، ولكنه خاض غمار الحياة فى مختلف الأعمال ، فدخل فى المحاماة والجندية وعاشر مختلف الطبقات ، فعرف الشعب والوجهاء والأعيان والوزراء ، ووقف على آلام الناس وآمال الزعماء ، فازداد خبرة بالحياة ومعرفة بالشعب.

وأضاف إلى ذلك قراءة للكتب والدواوين ، ووهبته الطبيعة ذاكرة نادرة فحفظ أطيب الشعر وأحسن النثر منذ صباه ، فاجتمع حوله إخوانه وزملاؤه ، وقدّروا فيه مواهبه ، ورأوا فيه محدّثاً وراوية للشعر القديم ، وناظماً شاعراً يقلّد القدماء ، فأحبوه .

ولما كان فى السودان برزت هذه المواهب فاجتمع حوله الضباط ، والأدباء ، والأساتذة ، فأكبروه كذلك .

ولما اجتمع بالإمام وأصحابه صقل أذهانهم بطيب شعره وعظيم نوادره فألفوا صحبته وظلوا له أوفياء حتى لفظ آخر أنفاسه .

ونحب أن نستعرض هنا هذه الألوان من شعره على اختلاف مراحل حياته لعلنا نتبين منها المدارس التى اتبعها والمذاهب التى سار عليها .

قال شعراً وهو فى السودان طبعه بطابع القدماء ، وحن فيه إلى الشكوى والأنين ، ولكنه لا يحرك عاطفة ولا يستلفت سمعاً ، فنظم سنة ١٨٩٥ شعراً منه :

يا لقومى إننى رجلٌ حرت فى أمرى وفى زمنى
أجفاءً أشتكى وشقاً إنّ هذا منتهى الحزنِ

وفى سنة ١٨٩٦ أنشد راثياً فقال فى مبالغة لبثت تلازمه :

أمست تنافس فيك الشهب من شرف
أرضٌ تواريت فيها يا فتى الجودِ
لولم تكن سبقتك الأنبياء لها قلنا بأنك فيها خيرُ ملحودِ

وقال كذلك سنة ١٨٩٧ يرثى ، وهو يعمد إلى المبالغة :

رحم الله منه شهماً وفياً كان ملء العيون فى كل نادِى

ألهم الله فيك صبراً جميلا   كلٌّ من بات ناطقاً بالضّادِ

وقال فى سنة ١٨٩٩ يصف الإمام محمد عبده ، فيرى فيه عمر وعليّا :

رأيتك والأبصارُ حولك خشّعٌ
فقلت : (أبو حفص) ببرديك أم (على)

ويقول سنة ١٩٠٠ فى محمود سامى البارودى :

سلبتَ بحار الأرض درّ كنوزها   فأمستْ بحارُ الشعر للدّر مورد

ويقول فى سنة ١٩٠١ يخاطب الخديو عباس الثانى ويصف شعره :

معان وألفاظٌ كما شاء (أحمد)
طوتْ جزْل (بشّار) ورقّة(مهيار)
إذا نظرت فيها العيون حَسِبْنَها
لحسن انسجام القول كالجدول الجارى

هذه بعض أقواله وهو فى السودان ، وقد جاوز الخامسة والعشرين من عمره ، طبعها بطابع القدماء فيها تهويل وفيها مبالغة وتشابيه ضخمة لا براعة تشع منها ولا اختراع ، فهى تفتتح غالباً بالغزل المصطنع وتنتهى بمدح أو رثاء ، وتختتم

فى عواطف باردة لا تقع من الشعر العالى العالمى بمكان .

ولكن حافظاً عاد بعد السودان إلى القاهرة فسمع فى مجالس الإمام شعراً ونثراً ولغة وأدباً ، ووطنية واجتماعاً ، فأحس بما يحس الشعب به ، ونظر إلى مصر نظرة الإمام إليها ، فانصرف ذهنه إلى قضايا الأمة ، وسبح خياله فى حبّ مصر والدفاع عنها والتشهير بأعدائها والسخرية من جلاّديها . وهنا يصحّ أن يُدرج حافظ فى سلك الشعراء المعاصرين وأن يكون من رجال القرن العشرين ، ولولا ذلك لعدا عليه الزمن ، ومحت الأيام سطوره ، ووقع فى شعراء القرن التاسع أو العاشر الهجريين .

فلنسمعه يمدح الخديوى عباس الثانى ويهنئه سنة ١٩٠٨ فيقول له :

أمانيّك الكبرى وهمّك أن ترى بأرجاء وادى النيل شعباً منعما
وأنْ تبنيَ المجد الذى مال ركنه وأن ترهف السيف الذى قد تثلّما

ويخاطب السلطان حسين كامل سنة ١٩١٥ فيذكره كذلك بمحبة الشعب والعمل لخدمته ، وبغيره لا يدوم تاج ولا عرش فيقول :

فعرشٌ لا تحفّ به قلوبٌ تحفّ به الخطوب ويضمحلُّ

وهكذا ظل يطرق أبواب السياسة والاجتماعيات ، وليس له فى المديح كبير غناء ، فالمديح فيما نرى لا يتصل بروحه ، فهو شاعر ناقم ساخر ، وإنما أكبر همّه أن يرمى الإنكليز بآيات بارعات هنّ مصحف شعره ، وهو فيه صاحب أسلوب فذّ لا نقع عليه فى دواوين معاصريه ، بل لا نقع عليه فى شعرنا العربىّ القديم كله ، فهو به شاعر الجيل ، وشاعر الشعب المصرى والأمة العربية الحديثة ، لم يقلّد فيه غيره من القدماء أو المحدثين ، ولم نجد من يقلّده فيه ، فلم يسبقه إليه سابق ولم يلحق به لاحق .

وأقوى شعره فى الإنكليز ما كان من أثر حادثة دنشواى فقد قال يصف عمل الإنكليز :

ليت شعرى أتلك محكمة التفـ تيش عادت أم عهد نيرون عادا

كيف يحلو من القوىّ التشفى من ضعيف ألقى إليه القيادا

ويخاطب العميد اللورد كرومر ، فيصف حادثة دنشواى ويقول :

خَلَّيْتَهُم والقاسطون بمرصد وسياطُهم وحبالهُم تتأهبُ

جُلِدوا ولو مَنَّيْتَهُم لتعلَّقوا ... بحبال من شَنَقوا ولم يتهيَّبوا
شُنقوا ولو مُنحوا الخيار لأهّلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات، وكأسُه ... بين الشفاه، وطعمه لا يعذُبُ

ويسخر من عهد اللورد كرومر فيقول :

فليتَ «كروماً» قد دام فينا ... يطوّق بالسلاسل كل جيدِ
ويتحف (مصرَ) آناً بعد آن ... بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ

ويرى الإنكليز يُعنون بالقطن واستغلاله فيقول لهم :

عملتم على عز الجماد وذلنا ... فأغليتم طيناً أرخصتم دما
إذا أخصبتْ أرض وأجدب أهلها ... فلا أطلعتْ نبتاً ولا جادها السما

ويودّع اللورد كرومر فيرى من الخير أن يذكر محاسنه ومحاسن الإنكليز وجهدهم فى بعث الشقاء بين الشعب وزرع الشركات الأجنبية لامتصاص دمه فيقول له :

أشرتَ برأى فى كتابك لم يكن ... سديداً ولكن كان سهماً مسدّدا
وحاولت إعطاء الغريب مكانة ... تجرّ علينا الويل والذلّ سرمدا
فيا ويل (مصر) يوم تشقى بندوة ... يبيت بها ذاك الغريب مُسَوَّدا
ألم يكفنا أنا سُلبنا ضياعنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كلُّ ممارس ... خبير وكنا جاهلين ورُقّدا

وما الشركات السُّودُ في كل بلدة ‏ ‏ سوى شَرَكٍ يلقى به من تصيَّدا

ويصف الاستعمار الإنكليزى وموقفه من الشورى ورجال الأمة فيقول :

وفى الشورى بنا داء عهيدٌ ‏ ‏ قد استعصى على الطبّ العهيد
شيوخ كلما همّت بأمر ‏ ‏ زأرتم دونه زأر الأسود
لحى بيضاء يوم الرأى هانت ‏ ‏ على حمر الملابس والخدود

إلى أن يقول :

أرى أحداثكم ملكوا علينا ‏ ‏ بمصر موارد العيش الرّغيدِ
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعاً ‏ ‏ وضاق بحملهم ذرع البريد
أكلّ موظف منكم قديرٌ ‏ ‏ على التشريع فى ظل العميد؟!

ويرسم لبنى قومه سياسة الإنكليز ويوازن بينهم وبين المصريين ويحذّر من خداعهم وأباطيلهم فيقول :

فما سادوا بمعجزة علينا ‏ ‏ ولكن فى صفوفهم انضمامُ
فلا تثقوا بوعد القوم يوماً ‏ ‏ فإنّ سحاب ساستهم جهامُ
وخافوهم إذا لانوا فإنى ‏ ‏ أرى السواس ليس لهم ذمامُ
فكم ضحك العميد على لحانا ‏ ‏ وعزّ بِسراتنا بِنه ابتسامُ

ويضيق بالإنكليز الذين ملئوا رحاب مصر فيقول فيهم :

صبوا البلاء على العباد فنصفهم يجبى البلاد ونصفهم حكّامُ

ويقول فى قصيدة أخرى :

وبنو مصر فى حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاماً فعاما

أيها النيل كيف نمسى عطاشا فى بلاد روّيتَ فيها الأناما

يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما

إن لين الطباع أورثنا الذ لّ وأغرى بنا الجفاة الطغاما

ولا يرى فى دواء لهذا الداء إلاّ الضحية والفداء فيهددهم ويفهم القوم أن مصر قررت أن تموت فى الذود عن حماها فيقول مخاطباً سعد زغلول :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفى البلاد دخيلُ

عزلٌ ولكن فى الجهاد ضراغمٌ لا الجيش يفزعها ولا الأسطول

ويقول كذلك :

إنا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموتُ أو نحيا ونحن كرامُ

هذا هو موقف حافظ من المستعمرين يصف استهتارهم بأمته ، وعدوانهم على كرامتها وحقوقها ، فكأنه يبكى لحظ مصر وقد وقعت فى قبضتهم ، لذلك حقّ له أن يبكى الجنود المدافعين عن حماها ، وأن يرثى هؤلاء الزعماء الذين يقودون الأمة فى

معركة الحرّية ويسقطون فى الميدان قبل الوصول إلى الغاية وتحقيق الاستقلال .

رثى محمود سامى البارودى وقد قام بدوره فى زعامة الجيش وقيادة الثورة ، بلسانه وسنانه فقال فيه :

كم وقفة لك والأبطال طائرة
والحرب تضرب صنديداً بصنديد

تقول للنفس إن جاشت إليك بها
هذا مجالك سودى فيه أو بيدى

نسختَ يوم (كريد) كلّ ما نقلوا
فى يوم (ذى قار) عن (هانى بن مسعود)

نظمتَ أعداك فى سلك الفناء به
على روىّ ولكن غير معهود

كأنهم كلم والموت . قافيةٌ
يرمى به عربىّ غير رعديد

ورثى الإمام محمد عبده وقد جاهد كذلك فى حلقات العلم واللغة والفضيلة فانطوت بموته صفحة فخارٍ للأزهر والمسلمين فقال :

وشاعت تعازى الشهب باللمح بينها
عن النيِّر الهاوى إلى الفلواتِ
مشى نعشه يختال عجباً بربه
ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدّموعُ الجاريات تقله
وتدفعه الأنفـــاس مستعرات
بكى الشرق فارتجّت له الأرض رجة
وضاقت عيون الكون بالعَبَرَات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات
بكى عالَم الإسلام عالِمَ عصره
سراج الدياجى هادم الشبهات

ولما خرّ الشهاب الثالث مصطفى كامل بطل الوطنية والصراع القومى رثاه الشاعر وبكى فيه بانى صرح المجد وخطيب مصر المفوّه ورجلها الجرىء فقال :

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا   يرنّ كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا هذا بناءٌ أقمته   فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يناشدنا بالله ألا تفرّقوا   وكونوا رجالاً لا تسروا الأعاديا

ثم يرثيه فى قصيدة أخرى فيفتقد فيه المدافع المناضل الذى كان يذود عن الكنانة ضد كرومر وأضرابه :

أين الخطيبُ وأين خلاّب النُّهى   طال انتظار السمع والأبصارِ
بالله مالك لا تجيب منادياً   ماذا أصابك يا أبا المغوارِ
قم وامحُ ماخطت يمين (كرومر)   جهلاً بدين الواحد القهارِ
قد كنت تغضب للكنانة كلما   همّت وهمّ رجاؤها بعثارِ

. . . .

جزع الهلال عليك يوم تركته   ما بين حرّ أسى وحرّ أوارِ
متلفتاً متحيّراً متخيرا   رجلا يناضل عنه يوم فخارِ
إنّ الثلاثين التى بك فاخرت   باتتْ تقاسُ بأطول الأعمارِ

وفى سنة ١٩٠٩ أنشد فى ذكرى وفاة مصطفى كامل مرثية أخرى بين فيها الظلم الذى تكتوى مصر بناره فقال :

قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا   عسف الجناة وأعلى صوتنا الألم
قد اتهمنا ولما نطّلب جللا   إن الضعيف على الحالين متهم

قالوا : لقد ظلموا بالحق أنفسهم ! والله يعلم أن الظالمين هُمُ
إذا سكتنا تناجوا : تلك عادتهم وإن نطقنا تنادوا : فتنةٌ عَمَمُ

وانتقل سعد زغلول فمشت مصر فى جنازته وتقطعت عليه القلوب حسرات فرثاه الشاعر فى سنة ١٩٢٧ :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ مال أين اعتزمتَ عنا الذهابا
كيف ننسى مواقفاً لك فينا كنت فيها المهيب لا الهيّابا
كنت فى معية الشباب حساماً زاد صقلا فرنده حين شابا

ولم يكتف حافظ برثاء رجال الوطنية والعاملين فى حقل النضّال وإنما بكى رجال الأقلام فهم فى الصفوف الأولى من خطوط القتال ، قال يرثى محمد المويلحى سنة ١٩٣٠ :

مؤثر البؤس والشقاء على الشكوى وإن عضّك الزمان بناب
كنت تخلو بالنفس والنفس نشوى من كئوس الهموم والأوصاب
فتسرى بالذكر عنها وتنفى ما عراها من غصّة واكتئاب

ولن نستطيع فى هذه الصفحات القليلة بيان ما لحافظ فى الرثاء ، ولن نتمكن من تعداد مراثيه وألوانها فذلك يطول ، ولكننا أردنا أن ندلّ على وطنية حافظ وحبه لمصر وتعلقه برجالها ومقاومته لرجال الاحتلال فبسطنا نماذج من شعره

ليست خير ما قال وإنما اخترناها لنضرب الأمثلة على أن حافظاً كان شاعر أمته وشاعر شعبه خصّ بهما أكثر قصيده ووقف عليهما كلّ نبوغه .

وقد جاوز الشاعر فى ديوانه حدود الإقليم ، وحلّق خياله وراء مصر ، وتناول فى موضوعاته الشرق والغرب فطرق أبواباً من القول تضع شعره فى مصاف الشعراء العالميين ، وترفع من قدر أدبنا الحديث إلى حيث يجب أن يرتفع ، فاستحق عاطر الذكر وعظيم الثناء .

نبض قلبه لكل كارثة فى العالم فشارك الأمم فى مصائبها وقاسمها أحزانها ، ووقع فى ذلك على التوفيق وحالفه فى ذلك النصر . قال يصف زلزال مسينا وقد حدث سنة ١٩٠٨ ، ويرسم ما كان من نكباته :

بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقداً عليها فتنشق انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار رداً عليها جيش موج نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسود اللون جونٌ وهنا الموت أحمر اللون قانى

جند الماء والثرى لهلاك الـ   خلق ثم استعان بالنيران

ودعا السحب عاتباً فأمدّتـ   ـه بجيش من الصواعق ثانى

. . . .

رُبّ طفل قد ساخ في باطن الأر
ض ينادى : أمى أبى أدركانى

وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ
ـر تعانى من حرّه ما تعانى

وأب ذاهل إلى النار يمشى
مستميتاً تمتد منه اليدانِ

باحثاً عن بناته وبنيه
مسرع الخطو مستطير الجنانِ

تأكل النار منه لا هو ناجٍ
من لظاها ولا اللظى عنه وانى

غصّت الأرض أتخم البحر مما
طوياه من هذه الأبدانِ

وشكا الحوت للنسور شكاةً
ردّدتها النسور للحيتانِ

أسرفا في الجسوم نقراً ونهشاً
ثم باتا من كظة يشكوانِ

وما أحسب أن فى الطليان من وفق إلى رسم الزلزال وأثره فى السكان كما وفق حافظ فى قصيدته هذه ، فقد وصف الأرض والجبال والبحر والمياه ، وصوّر المعركة التى قامت بين عناصر الطبيعة تغلى بالحقد وتثور بالموجدة ، فتزرع الموت فى كل مكان ، ولا ينجوْ منها فتى أو فتاة ، ولا يجنبها أب أو أم ، وإنما يلوذ جميعهم بالفوضى الناشبة ، ويتعلقون بحبال اليأس بين النار والماء .

وخير للأدب الإيطالى الحديث أن يترجم هذه اللوحة البارعة إلى صفحاته فيجعل منها فى المتاحف الأدبية صورة للشعر المصرى الحديث . وحين يتساءل المرء عمّا دفع حافظاً الشاعر العربى إلى المشاركة بالمصاب ، ووصف ألوان العذاب يجيبه حافظ : « ذاك حق الإنسان عند بنى الإنسان » .

ووصف حافظ سفينة أقلته إلى إيطاليا فى نوفمبر ١٩٢٣ ، فرسم ما يعرض للمسافر فى عرض البحر قال :

عاصف يرتمى وبحر يُغير
أنا بالله منهما أستجيرُ

وكأنّ الأمواج – وهى توالى محنقاتٍ – أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدورُ
ثم أوفت مثل الجبال على الفلـ ـك وللفلك عزمة لا تخورُ
تترامى بجؤجؤ لا يبالى أمياه تحوطه أم صخورُ
أزعج البحر جانبيها من الشدّ فجنب يعلو وجنب يغورُ
وهو آناً ينحطّ من علو كالسيـ ـل وآناً يحوطها منه سورُ
وهى تزورّ كالجواد إذا ما ساقه للطعان ندب جسورُ
وعليها نفوسنا خائراتٌ جازعاتٌ كادت شَعَاعاً تطيرُ
فى ثنايا الأمواج والزبد المنـ ـدوف لاحت أكفاننا والقبورُ
مرّ يوم وبعض يوم علينا والمنايا إلى النفوس تشيرُ

ووصف حافظ الشرب والكاس فأبدع فيهما وسارت قصيدته فى الناس قال :

يا غلامُ المدامَ والكأسَ والطا
سَ وهيىء لنا مكاناً كأمسِ
أطلق الشمس من غياهب هذا الدّ
نّ واملأ من ذلك النور كأسى

وأذن الصبحَ أن يلوح لعينى

من سناها فذاك وقت التحسّى

وادع ندمان خلوتى وائتناسى

وتعجّل واسبل ستور الدمقسِ

واسقنا يا غلام حتى ترانا

لا نطيق الكلام إلا بهمسِ

ووقعت الحرب بين الروس واليابان فوصفها حافظ كما وصف الزلزال من قبل ، فهى كارثة كذلك ، وهى أعملت منجل عزرائيل فى حصاد النفوس قال :

أضحى رسول الموت ما بينها حيران لا يدرى بما يؤمرُ

عزريل هل أبصرتَ فيما مضى وأنت ذاك الكيّس الأمهرُ

كذلك المدفع فى بطشه إذا تعالى صوته المنكرُ

تراه إن أوفى على مهجة لا الدرع يثنيه ولا المغفرُ

وشاعرنا يحبّ اليابان ويؤثرها فى أخلاقها على أمم الشرق كله ، فما يتصدى لحربها ونضالها وانتصارها وبطولتها حتى ينقلب إلى قومه فينعى عليهم تخاذلهم واختلافهم فيقول فى وصف أمته :

أمّة قد فتّ فى ساعدها بغضها الأهل وحبّ الغربا

تعشق الألقاب فى غير العلا ... وتفدّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالى لعبا

وتتحرر الأمة العثمانية من كابوس ثقيل ، وينبثق فيها الدستور فيعرض حافظ لذلك ، ويتخلص منه إلى نصح قومه وإرشادهم ودعوتهم إلى الاتحاد والائتلاف فيقول واصفا حالهم :

سرى داء التواكل فيه حتى ... تخطّف رزقه ذاك الزحامُ
قد استعصى على الحكماء منا ... كما استعصى على الطب الجذام
هلاك الفرد منشؤه توان ... وموت الشعب منشؤه انقسامُ
وإنّا قد ونينا وانقسمنا ... فلا سعى هناك ولا وئامُ
فساء مقامنا فى أرض مصر ... وطاب لغيرنا فيها المقامُ
فلا عجب إذا ملكت علينا ... مذاهبنا وأكثرنا نيامُ

ويخيّل إلينا أن الشاعر يصطاد المناسبات ليعظ قومه ويصف ما هم عليه من تفكك اجتماعى أثاره الاحتلال وعزّزه الفقر ونصره الجهل فقال يصف قومه :

هذا يطير مع الخيا ... ل وذاك يرتجل النوادرْ

ما هدّ عزم القادريـن بعصر إلا قول (باكرْ)

وكأننا بالشاعر وقد نشأ فى مدرسة الإمام محمد عبده قد اتخذ لنفسه صفة المصلح الاجتماعى ، والناصح المرشد ، يهبّ فى كل آن إلى الإصلاح والدعوة إلى الدين ، والقيام بتطهير الشعب من أمراضه وآفاته ، ومداواته من شقائه وآلامه ، بل لعله يحسّ أنها رسالة أودعها الإمام فى عنقه يؤديها كلما حزب الأمر ودعا إلى الإصلاح داع .

فهو لاينى ولا يقف عن المناداة بالرحمة والإشفاق والدعوة إلى الزكاة والإكرام ، وإغاثة الضعيف ونصرة الملهوف .

فلما حدث حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢ نادى بالأغنياء قائلا :

أيها الرافلون فى حلل الوشـ ـى يجرّون للذيول افتخارا

إنّ فوق العراء قوماً جياعاً يتوارون ذلة وانكسارا

وحين حدث خلاف بين الشيخ على يوسف والسيد أحمد عبد الخالق السادات حول زواج الشيخ ، كتب حافظ قصيدة عرض فيها كذلك لأخلاق الشعب ونادى بالإصلاح على عادته فقال :

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها (أبو الطيب)
أمور تمرُّ وعيش يُمِرُّ ونحن من اللهو فى ملعبِ
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجربِ
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقربِ
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحبِ
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى وِده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

وكأنه لا يُشفى غليله بهذا النقد وهذا التجريح فيلحّ على الأمراض ويعرض لها فى أكثر شعره حتى لنظن أنه معرىّ عصره ، يتناول أفراد الأمة بالنقد فى القرن الرابع عشر كما تناول المعرىّ عصره فى القرن الخامس ، فلا يكاد يخلو من نقده رجل صناعة أو علم إلا وصفه ونال منه . قال يصف العلماء المزيفين لعصره :

كم عالم مدّ العلوم حبائلاً لوقيعة وقطيعة وفراقِ
وفقيه قوم ظل يُرصدُ فقهه لمكيدة أو مستحلّ طلاقِ
يمشى وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تلّ نفاقِ
يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذى يدعون خدن شقاقِ

وطبيب قوم قد أحلّ لطبه ... ما لا تحلّ شريعة الخلاقِ
قتل الأجنة فى البطون وتارة ... جمع الدوانق من دم مهراقِ
أغلى وأثمن من تجارب علمه ... يوم الفخار تجارب الحلاقِ
ومهندس للنيل بات بكفه ... مفتاح رزق العامل المطراقِ
تندى وتيبس للخلائق كفه ... بالماء طوع الأصفر البرّاقِ
لا شىء يلوى من هواه فحده ... فى السلب حدّ الخائن السرّاقِ
وأديب قوم تستحق يمينه ... قطع الأنامل أو لظى الإحراقِ
يلهو ويلعب بالعقول بيانه ... فكأنه فى السحر رقية راقى
فى كفه قلم يمجّ لعابه ... سمّاً وينفثه على الأوراق
يرد الحقائق وهى بيض نصّع ... قدسيّة علويّة الإشراقِ
فيردّها سوداً على جنباتها ... من ظلمة التمويه ألف نطاقِ

ولا يكتفى الشاعر بوصف الأمراض والعلل وإنما يشارك فى وصف الأدوية والعلاجات ، فينادى مع المنادين فى عون الفقير ومساعدة العميان وتعليم الطفل ، قال يدعو إلى الخير :

أنقذوا الطفل إن فى شقوة الطفـ ... ـل شقاء لنا على كل حال
إن يعش بائساً ولم يطوه البؤ ... س يعش نكبة على الأجيال
رب بؤس يخبّث النفس حتى ... يطرح المرء فى مهاوى الضلال

أنقذوه فربما كان فيه مصلح أو مغامر لا يبالى
ربما كان تحت طمريه عزم ذو مضاء يدك شمّ الجبال
رب سرّ قد حلّ جسم صغير وتأبّى على شديد المحال

وذلك لأن حافظاً ذاق ألم اليتم والبؤس والفقر ، فعرف ما تفعل هذه جميعاً فى الأطفال ، فالتفت إلى أمته وأهاب بها أن تعنى بهذه الآفات فتجنب الشعب ويلات وويلات .

وإذا كان الشاعر قد أحبّ الأرض وعمل للذود عن حياضها ضد المستعمر ، وأحبّ الشعب وسعى إلى تعليمه ونصحه ومداواة أمراضه ، فهو قد أحبّ اللغة العربية حبّاً جمّاً لا يعادله حب ، فلمّا قرّر المستعمرون أن يضعفوها وأن يضعوا الإنكليزية فى المدارس وفى المؤسسات والدوائر غضب وثار ، وامتدح اللغة الفصحى لغة القرآن المجيد ، ونال من اللغة الإنكليزية ونعتها بالضعف والخور ، قال فى سنة ١٩٠٣ على لسان العربية يخاطب أمته :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوماً علمتم بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما يعزّ عليها أن تلين قناتى

حفظن ودادى فى البلى وحفظته   لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق   حياء بتلك الأعظم النخرات

. . . .

أيهجرنى قومى عفا الله عنهم   إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى   لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة   مشكلة الألوان مختلفات

وهو لا يفضل اللغة العربية على الإنكليزية فحسب ، وإنما يفضل الشعر العربيّ على الشعر الغربيّ فيقول :

سل (ألفريد) و (لامارتين) هل جريا
مع الوليد أو الطائى بميدان
وهل هما فى سماء الشعر قد بلغا
شأن النواسى فى صوغ وإتقان ! ..

هذا هو المحامى الذى انبرى طيلة عمره للدفاع عن أمته وقومه ضد المستعمر ، ونقد أخلاق الشعب وهو يحبّ له الخير ويتمنى له الاستقلال والعزة والكرامة والصحة والغنى ، فهو شاعر الشعب وهو مصدر من مصادر تاريخه القومى . وهو على ذلك إنسان يتسامى بشعره الإنسانى فيصف ما يصيب

الأمم من كوارث وأحداث سواء فيها الشرقية أم الغربية .

وحين يستعرض القارئ ديوانه فيقع على وصف بركان المارتينيك وثورته، وزلزال مسينا ونكبته، وحرب اليابان وضحاياها، وسلطان مراكش ومجونه ، وحوادث العثمانيين وعبثهم ، يجد أن الشاعر عاش على قمة الإنسانية يعطف على البؤساء والمنكوبين ، ويرقّ للعجائز والبائسين ، ثم ينظر إلى قومه فإذا هم فى الأصفاد والقيود ، فيغضب ويثور .

وأما هؤلاء المصريون الذين ماتوا ، فهم نذر بفقد الرجال العاملين فى حقل الحرية والنضال ، يعدّهم حافظ ، وينظر إليهم يتوارون وكأنهم قطعة من بلاده المقدسة تغيب تحت الماء أو تنهار تحت الزلزال أو تنصهر بنار البركان ، وكأنّ فى بقائهم بالميدان ضمانة للسور الذى يحيط بالوطن ، ينهار بانهيارهم ويتضعضع بزوالهم .

وإذا استعرضنا هؤلاء الذين بكاهم عرفنا المجتمع الذى عاش فيه والأفراد الذين أحبهم وفقدهم وهم أعلام مصر ومشاهيرها قرنوا إلى اسمه مع الزمن ، فأصبح هو كذلك من الأعلام الذين يذكرون إذا ذكر القرن العشرون وذكر الأدب المصرى الحديث ؛ رفعه شعره إلى مصافّهم ولولاه لعاش منسياً مغموراً فى الملايين التى تضمها الصحراء وترويها السماء .

١٣

موقعه من الشعراء القدامى والمحدثين

قرأ حافظ إبرهيم دواوين القدماء وحفظ أكثر شعرهم وسعى إلى تقليدهم ، وعاش وهو يؤمل أن يبذهم ، وأن يفوق فى ألفاظه ومعانيه جزالة بشار ورقة مهيار وألفاظ المتنبى وأسلوب حسان وأغراض أبى نواس .

قال منذ سنة ١٩٠١ يصف شعره :

معان وألفاظ كما شاء (أحمد)
طوت جزل (بشار) ورقة (مهيار)

وقال فى خطاب الخديو عباس الثانى سنة ١٩٠٤ :

واليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم
عهد (النواسى) أو أيام (حسّان)

وظلّ شعره فى حلبة الأسلوب والصياغة على سباق مع الأقدمين حتى كاد يقع شعره من هذا الباب فى الشعر العباسى .

وما نظن أنه يختلف عن شعراء العباسيين فى الجزالة والمتانة . ونحسب أن الزمان قد انقطع بينه وبينهم فوصلته القوافى والأساليب فهو تتمة الشعراء العباسيين وخاتمهم .

ولقد وضعه الدكتور طه حسين مع شوقى فى أشعر العرب بعد المتنبي وأبى العلاء فقال : « هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك » .

وقال فيه خليل مطران :

«يتعب فى قرض قريضه تعب النحّات الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره ؛ يؤثر الجزالة على الرقة . . . له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى . وفى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حيناً فى التصور لم يفته الابتكار فى التصوير » .

وقد كان حافظ يعجب بالبارودى وخليل مطران وإسماعيل صبرى ، ويمدحهم فى شعره ، ويجعلهم طلائع النهضة فى زمانه . وقد كان يرى للبارودى فضل التقدم ، فقد جدّد الشعر ونقاه من التكلف قبل أن يقول حافظ شعراً ، ولكنه لم يكن للشعب كما كان حافظ ، فلم يطرق الأبواب التى طرق ،

لذلك نرى فى شعره جسراً عبر عليه شاعرنا إلى الشعر الحديث المصقول الفنىّ .

وكان الشعراء المعاصرون يكيلون لحافظ المديح ويجدون المتانة والجزالة فى تراكيبه وأسلوبه ، وسنعرض هنا لبعض أقوالهم فيه لعلنا نعرف موطن التقدير والإكبار .

قال البارودى فى شعر حافظ :

لبق بتصريف الكلام يسوقه ... ما شاء بين سهولة وعزاز
فإذا تغزل فالنفوس نوازع ... وإذا تحمّس فالقلوب نوازى

. . . .

حاك القريض بلهجة عربية ... أغنت عن الإسهاب بالإيجاز
ألفاظها نمّت على ما تحتها ... وصدورها دلت على الأعجاز

وقال فيه أحمد شوقى :

ما زلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميتَ أمانة القدماء
جدّدت أسلوب (الوليد) ولفظه ... وأتيت للدنيا بسحر (الطائى)

وقال فيه خليل مطران :

شاعر لم يباده أحدٌ فى الـ ... أخذ بالمستحب والمستجاد
يحكم الصوغ فى القلاد فما يأ ... تى صناع بمثلها فى القلاد

. . . .

فى تراكيبه وفى مفردات اللفظ حارت نفاسة الحسَّاد

فالشعراء المعاصرون كانوا يرون أنه يحكم الصياغة والأسلوب والألفاظ والمفردات . وهو نفسه يعترف لنا بحبه للقدماء وسعيه فى تقليدهم وسبقهم ، وأنه كان يقلّب اللزوميات فيستفيد منه حين يتبرم بالحياة ويضيق بالعيش فيقول فى « ليالى سطيح » :

« فقمتُ إلى ربيع الأرواح ومسرح النفوس — وأعنى به اللزوميات ، فطويتُ بفتحه كتب الأوهام ، ومحوتُ بسطوره سطور الآلام » .

لذلك نرى فى شعره ما فى دواوين المتنبى والبحترى وابن الرومى وأبى تمام والمعرّى من ألفاظ ومعان وسخرية لاذعة ، وقد أعلن أكثر من مرة أنه سار على طريقة مثلى فى الشعر فقال :

ولمّا أصِفْ كأساً ولم أبك منزلا   ولم أنتحل فخراً ولم أتنبّل

وقال فى وصف غزله :

هوينا فما هنّا كما هان غيرنا   ولكننا زدنا مع الحب سؤددا

وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا   بأيسر من حكم السماحة والندى

وقال فى قصيدته إلى الخديو عباس الثانى :

أزف فيه إلى العباس غانية   عفيفة الخدر من آيات عدنانِ
من الأوانس حلاّها يراع فتى   صافى القريحة صاح غير نشوانِ
ما ضاق أصغره عن مدح سيّده   ولا استعان بمدح الراح والبانِ
ولا استهلّ بذكر الغيد مدحته   فى موطن بجلال الملك ريّانِ

وقال كذلك يخاطب الشعر القديم ويبين عن طريقته فى النظم :

ضعتَ بين النهى وبين الخيالِ   يا حكيم النفوس يابن المعالى
ضعت فى الشرق بين قوم هجود   لم يفيقوا وأمة مكسالِ
قد أذالوك بين أنس وكأس   وغرام بظبية أو غزالِ
ونسيب ومدحة وهجاء   ورثاء وفتنة وضلالِ
وحماس أراه فى غير شىء   وصغار يجرّ ذيل اختيالِ
عشتَ ما بينهم مذالا مضاعاً   وكذا كنت فى العصور الخوالى
حملوك العناء من حب ليلى   وسليمى ووقفة الأطلالِ
وبكاء على عزيز تولّى   ورسوم راحت بهنّ الليالى
وإذا ما سموا بقدرك يوماً   أسكنوك الرحال فوق الجمالِ
آن يا شعر أن نفك قيودا   قيدتنا بها دُعاة المُحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

وحافظ بهذه القصيدة عرّف طريقته فى الشعر كما عرّفها قبله بعشرة قرون أبو فراس الحمدانى حين قال :

لم أعد فيه مفاخرى ومديح آبائى النجب
لا فى المديح ولا الهجا ء ولا المجون ولا اللعبْ

وانتقد الوقوف على الديار وبكاء الأحباب كما فعل أبو نواس قبله باثنى عشر قرناً حيث قال :

قل لمن يبكى على رسم درس واقفاً ماضر لوكان جلسْ
تصف الربع ومن كان به مثل سلمى ولُبَيْنَى وخنسْ
اترك الربع وسلمى جانباً واصطبح كرخيةً مثل القبسْ

ولكنه على كل حال عرّف الشعر الذى نظمه ، وبيّن لنا الأبواب التى طرقها ونرى أنه كان وفيًّا صادقاً مخلصاً فى ذلك كله ، فهو لم يتغزلْ ولم يهجُ ولم يقل فى الحماسة والفخر . ولكنه مدح فسقط على كثير من البسيط الغث ، ورثى فبكى وأبكى ، وكان رثاؤه كما يقول نصف ديوانه . وأعظم ما فى هذا الديوان وصفه آلام الدهماء من الشعب ، وتصويره وطنية الأمة لذلك العهد وموقفه من المستعمر والسلطان والخليفة ،

ووصفه حالة الكنانة فى جهلها وفقرها وتفرقها وذلها وأمراضها ، فكأنه كان مؤرخاً لحالها كما قال هو نفسه فى تعريف شعره :

ولكننى فى معرض القول شاعر أضاف إلى التاريخ قولا مخلّدا

فديوانه تاريخ أمته نظمه شعراً ، يقرؤه المصريون فيجدون فيه سجلا لنصف قرن من حياة مصر ، غامت السحب خلاله ، واحلولك وجه السماء . فلعلّ الأيام تحقق آمال الشاعر وتردّ إلى مصر عزّها القديم ومجدها الخالد فترتع فى النعيم وتسبح فى السرور ، وتمتلك من جديد ناصية الخلود .

١٤
حافظ وشوقى

عرفنا آراء الشعراء المعاصرين والكتاب الناقدين فى حافظ وفى شعره ، وعرفنا أنهم كانوا يحفظون له فى قلوبهم أطيب الود وأعظم الحب . وكان حافظ يبادلهم وداً بود وتحية بتحية ، ويجدر بنا بعد أن استعرضنا آراء الشعراء فيه أن نستعرض رأيه فيهم واحداً بعد واحد . قال فى محمود سامى البارودى يمدحه سنة ١٩٠٠ :

أمير القوافى إن لى مستهامة　　　بمدح ومن لى فيك أن أبلغ المدى

وقال فى إسماعيل صبرى :

(صبرى) استثرت دفائنى وهززتنى
وأريتنى الإبداع كيف يُنَسَّقُ
فأبحتَ لى شكوى الهوى وسبقتنى
فى مدح (عباس) ومثلك يسبقُ

وقال فى خليل مطران :

فمشى النثر خاضعاً ومشى الشعـ ر وألقى إلى (الخليل) الزماما

ومدح الكتاب المعاصرين كمحمد المويلحى ومحمد عبده وأصحاب المقتطف ودار المعارف والضياء والهلال والجامعة .

ولكنه كان يقف من شوقى موقفاً غريباً ، فهو يعلن فى شعره كله منذ سنة ١٩٠١ حتى وفاته أن شوقى أمير الشعراء وأنه وحده الخالد . ولعله أول الأمر كان يجعل أحمد شوقى وسيلة إلى إرضاء القصر ، ولكنه وقد اشتهر بلقب أمير الشعراء وشاعر الأمراء لم يستطع أن يتراجع عن مدحه ، بل كان يغتنم الفرص والمناسبات ليعلن فى شعره هذا الود والإكبار ، وقد كان يضرب المثل بشعر شوقى ، فقال فى تهنئة عباس الثانى سنة ١٩٠١ :

إلى سدّة (العبّاس) وجهت مدحتى
بتهنئة (شوقيّة) النسج معطار

وقال فيه بالسنة نفسها :

لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى إلا فتى ماله فى السبق إلاّه
ذاك الذى حكمت فينا يراعته وأكرم الله والعباس مثواهُ

ثم قال فيه :

لم يبق (أحمد) من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب

ولما هنّأ الخديو عباس الثاني سنة ١٩٠٨ قال :

(شوقي) نسبت فما ملكتُ مدامعي من أن يسيل بها النسيب الشيّقُ

وفي سنة ١٩١٣ قال فيه :

يا سيّدي وإمامي ويا أديب الزمانِ
حرمتُ رؤية شوقي ولثم تلك البنانِ

وفي السنة نفسها قال في شوقي وصبري وهو يهنئ المطران :

وتلونا آيات شوقي وصبري فرأينا ما يبهر الأفهاما
ملآ الشرق حكمة وأقاما في ثنايا النفوس أنّى أقاما
غنيا المشرقين ماترك الأفلا كَ حيرى وأذهل الأجراما
وأعادا عهد الرشيد لعبّا س فكانا يراعه والحساما

ولما سافر شوقي إلى مؤتمر المستشرقين ودعه بقصيدة لقبه فيها بشاعر الشرق فقال :

يا شاعر الشرق اتئد ماذا تحاول بعد ذاك
هذي النجوم نظمتها درر القريض وما كفاك

وفي سنة ١٩١٩ عاد شوقي من منفاه فحيّاه حافظ بقوله :

هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه إن لم يكن قد جاء بعد أوانه
فأتى بما لم يأته متقدم أو تطمع الأذهان فى إتيانه

وفى سنة ١٩٢٧ نظم قصيدة يهنئه بها فى حفلة تكريمه بالأوبرا قال فيها :

لئن عجبوا أن شاب شوقى ولم يزل فتى الهوى والقلب جم التواضع
لقد شاب من هول القوافى ووقعها وإتيانه بالمعجز المتمنع

وبعد أن لخص قصائد الشوقيات وحللها قال :

تملكت من ملك القريض فسيحه فلم تبق يا شوقى لنا قيد أصبع

وهكذا ظل حافظ خلال ثلاثين سنة يكيل المديح لشوقى فى قصائد يخصه بها أو يتطرق إلى ذكره فيها ، لا يقتصد فى كلامه ولا يبخل فى تقريظه . فهل كان هذا حباً حقاً صادراً من أعماق نفسه ؟ أم كان ذلك خوفاً من مقام شوقى ومكانته فى القصر وبين الأعيان وعلية القوم ؟ أم كان ذلك نفاقاً وتقرباً لعله يحظى بمثل ما حظى به أمير الشعراء من غنى ونعيم وترف !

إن الخلاف كان واقعاً بين الشاعرين وأنصارهما ما فى ذلك ريب ، وإن الحسد كان شائعاً ذائعاً ما فى ذلك شك .

قال شوقى فى رثاء حافظ يلمح إلى ذلك :

ووددتُ لو أنى فداك من الردى
والكاذبون المرجفون فدائى

الناطقون عن الضغينة والهوى
والموغرو الموتى على الأحياء

من كل هدّام ويبنى مجده
بكرائم الأنقاض والأشلاء

ما حطّموك وإنما بك حطّموا
منْ ذا يحطّم رفرف الجوزاء

والغريب أن حافظاً لم يشر إلى ذلك فى شعره ، وإنما بسط أمره فى وضوح وهو يخط كتابه « ليالى سطيح » ، فقد عرض بصورة عامة أولا إلى حساده فقال فيهم :

« ينبغ فيها — أى مصر — النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه ؛ ويكتب فيها الكاتب ، فينبرى له سفيهها فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ، ويفسد عليه كتابه ؛ ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهها فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على سره » .

ثم عرض بصورة خاصة دقيقة لأمر شوقي فبسط الخصومة بينه وبينه ، فأجرى على لسان صديق حواراً بينه وبين الكاهن سطيح عن الشوقيات قال سنة ١٩٠٦ :

« فلو بُعث اليوم صاحب اللزوميات وحاول أن ينشر فى تلك الصحف حرفاً مما أخذه على الأمراء وأنكره على الكبراء لأبت عليه أن تفسح لذلك الحرف مكاناً بين جداول الأموات فضلا عن جداول الأحياء . ألم تر إليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرظ الشوقيات وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب ما تعجز صحف الأستانة عن إسناد بعضه إلى جلالة المتبوع الأعظم ، وقد أدى فريضة الجمعة أو تحركت شفتاه بالإنعام على بعض أهل الزلفى برتبة أو وسام .

« بربك ماذا رأيت فيها من الآيات وما جاء به صاحبها من المعجزات اللهم إلا ما يتباصر به علينا من تلك المعانى الغريبة التي ما سكنت فى معنى عربيّ إلاّ وذهبت بروائه .

« قلتُ : حسبك لاتغضض من شاعر الشرق ولا تنقص من أدبه ، فتالله إنه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كأنما يتناول الشعر من كمه لسهولة

متناوله عليه إلا أنه مكثار ، وقلّ أن يسلم المكثار من العثار . فشعره كما قال الأصمعى فى شعر أبى العتاهية كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب » إلى أن يقول :

« وصاحبكم بفضل ما هو فيه من السعة فارغ للشعر غير مشغول بغيره فالعجب أنه لا يجيد . وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة . »

وينتهى حافظ على لسان سطيح فى الحكم على شوقى بقوله :

« ولو أنه مُنح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع وواحدكم غير منازع .

« قال صاحبى — وهو يكظم غيظه — إنه لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة إلاّ سلخه ثم مسخه ، فإن كان الأسلوب على ما وصفت وكانت المعانى لغيره فما عسى يكون فخره علينا وقد ذكر صاحب دلائل الإعجاز : أن البلاغة لا تقع فى اللفظ ولا فى المعنى ولكنها تقع فى الأسلوب ، فمن كان أسلوبه يجرى على غير هذا الحدّ كان خليقاً أن لا يسمى

بليغاً ، وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ غامض المعنى يحتاج الناظر فى كلامه إلى تخوت الرمل وطوالع التنجيم . وقد قصر همّه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها حتى أصبح بعضها علامة تدلّ على شعره وإن كان غفلاً من ذكره . ولقد نظرتُ فى طريقة شعره فألفيتها فى الغارة على صحائف الأولين فهو لم يغادر معنى فى خدره إلاّ سباه ، ولا لفظاً فى ذكره إلا وأزعجه .

« ألا ترثى بربك إلى عظام أبى الطيب وهى تئن فى قبرها على أبياتك شادها صاحبها ، وخربها صاحب الشوقيات ... »

ويتعقب حافظ أبيات شوقى فيبين أخذها من المتنبى وسرقتها من البحترى ونظرها فى ابن الرومى ، ويمضى صفحات عدة فى تعقبه وإحصاء الشواهد على ذلك كأنه أستاذ للأدب أو ناقد للشعر أو مدرس فى الجامعة ، ويختم مطافه فى بيان موقفه فيقول فيه :

« فهو عميد جال هذه الدولة الجديدة فلا يكن مثلك وإياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه :

كلانا بها ذئب يحدّث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجدّ »

هكذا صوّر حافظ موقفه من شوقى وموقف شوقى منه حتى جمعهما الموت تحت التراب وآواهما الخلود بجناحيه ، ورفعهما إلى سماء الشعر العربى ، وضمهما إلى أترابهما من شعراء القرن الثالث والرابع ، فتلاقت أرواحهم بعد ألف سنة فى عناق ووئام بجنان الخلود ورياض الجنة ، يسرحون ويمرحون يطوف عليهم ولدان مخلدون ، وقد أنساهم النعيم فى الدار الآخرة ما كانوا فيه بهذه الدنيا من شظف النقد وغيرة الأدباء وحسد الحاسدين .

نماذج من شعره

من الخير أن نختم هذه الصفحات ببعض الشعر الذى يعين القارئ على تصور حافظ والتعرف إليه من خلال هذه الأبيات ، ولكننا لا نطمع فى أن نستوفى الموضوع كله من جوانب هذه المختارات فذلك طويل عسير ؛ وإنما هى محاولة لعرض ما لم نستطع عرضه فيما سبق من صفحات .

حريق ميت غمر

شبّت النار فى مدينة ميت غمر من أعمال الدقهلية يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢ ، وأتت على أكثر الدور خلال سبعة أيام وكانت الضحايا كثيرة والنكبة عظيمة .

سائلوا الليل عنهمُ والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأ ... م وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا

ومن النار أن تكف أذاها ومن الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يُروى هذه النار فهي تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجي فباتت تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجري يميناً ورمتهم والبؤس يجري يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم فلما استقلت لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلة لا تقيهم البرد والحـ ـر، ولا عنهم ترد الغُبارا

بركان مارتينيك

ثار البركان في المارتينيك إحدى جزر الهند الغربية يوم ٨ مايو سنة ١٩٠٢ فالتهم من الضحايا ما يثير الأسف والأسى والشاعرية فقال الشاعر يخاطب الأرض :

ألبسوكِ الدماء فوق الدماء وأروكِ العداء بعد العداءِ
فلبستِ النجيع من عهد قابيـ ـل وشاهدت مصرع الأبرياءِ

فلك العذر إن قسوت وإن خنـ ... ـت وإن كنت مصدراً للشقاء
غلط الناس ما طغى جبل النا ... ر بإرسال نفثة فى الهواء
أحرجوا صدر أمه فأراهم ... بعض ما أضمرت من البرحاء
أسخطوها فصابرتهم زمانا ... ثم أنحت عليهم بالجزاء
أيها الناس إن يكن ذاك سخط الـ ... أرض ما ذا يكون سخط السماء

حظ الشاعر فى مصر

حطمتُ اليراع فلا تعجبى ... وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب ... أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت ... فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
أيعجبنى منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبي
وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم نغضب
أنابتة العصر إن الغريب ... مجدٌّ بمصر فلا تلعبى

أمنية الوطنى

كاشف الكهرباء ليتك تُعنَى ... باختراع يروض منا الطباعا

آلة تسحق التواكل فى الشر ... ق وتلقى عن الرياء القناعا
قد مللنا وقوفنا فيه نبكى ... حسباً زائلا ومجداً مضاعا
وسئمنا مقالهم كان زيد ... عبقريًّا وكان عمرو شجاعاً
ليت شعرى متى تنازع مصر ... غيرها المجد فى الحياة نزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحـ ... ـياء فخراً فى الخافقين مذاعا

غلاء الأسعار

أيها المصلحون ضاق بنا العيـ ... ـش ولم تحسنوا عليه القياما
عزّتِ السلعة الذليلة حتى ... بات مسح الحذاء خطبا جُساما
وغدا القوت فى يد الناس كاليا ... قوت حتى نوى الفقير الصياما
يقطع اليوم طاوياً ولديه ... دون ريح القتار ريح الخزامى
ويخال الرغيف فى البعد بدراً ... ويظن اللحوم صيداً حراما
إن أصاب الرغيف من بعد كدّ ... صاح: من لى بأن أصيب الإداما

عقّنى الدهر . . .

لا تلم كفّى إذا السيف نبا ... صحّ منى العزم والدهر أبَى

رُبَّ ساعٍ مبصر فى سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبا
مرحباً بالخطب يبلونى إذا كانت العلياء فيه السببا
عقنى الدهر ولولا أننى أوثر الحسنى عققتُ الأدبا
إيه يا دنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى برقك إلاَّ خلَّبا
أنا — لولا أن لى من أمتى خاذلا — ما بت أشكو النوبا
أمة قد فتَّ فى ساعدها بغضها الأهلَ وحبّ الغربا

إلى المستعمرين

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفِّضوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقُنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ، ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صادا
جاء جهالنا بأمر وجئتم ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جمادا ؟

إلى الطليان

قد ملأنا البحر من أشلائهم فدعوهم يملأوا الدنيا كلاما
أعلنوا الحرب وأضمرنا لهم أينما حلوا هلاكاً واختراما
خبّروا ڤيكتور عنّا أنه أدهش العالم حرباً ونظاما
أدهش العالم لمّا أن رأوا جيشه يسبق فى الجرى النعاما
لم يقف فى البر إلا ريثما يسلم الأرواح أو يلقى الزماما
حاتم الطليان قد قلّدتنا منة نذكرها عاماً فعاما
أنت أهديت إلينا عدّة ولباساً وشراباً وطعاما
وسلاحاً كان فى أيديكم ذا كلال فغدا يفرى العظاما
أكثروا النزهة فى أحيائنا وربانا إنها تشفى السقاما
وأقيموا كل عام موسماً يشبع الأيتام منا والأيامى

مصر القديمة

هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ بر يوماً فريتم بعض جهدى
هل رأيتم تلك النقوش اللواتى أعجزت طوق صنعة المتحدى

حال لون النهار من قدم العهـ ـد وما مسّ لونها طول عهد
هل فهمتم أسرار ما كان عندى من علوم مخبوءة طىّ بـَردى
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهـ ـر وأبلى البلى وأعجز ندّى
قد عقدت العهود من عهد فرعو ن ففى مصر كان أول عقد
إن مجدى فى الأوليات عريق من له مثل أولياتى ومجدى
أنا أم التشريع قد أخذ الرو مان عنى الأصول فى كل حدّ
ورصدت النجوم منذ أضاءت فى سماء الدجى فأحكمت رصدى
وشدا (بنتاءور) فوق ربوعى قبل عهد اليونان أو عهد (نجد)
وقديماً بنى الأساطيل قومى ففرقن البحار يحملن بندى
قبل أسطول (نلسن) كان أسطو لى سريًّا وطالعى غير نكد
فسلوا البحر عن بلاء سفينى وسلوا البر عن مواقع جُردى

إلى الإنكليز

حوّلوا النيل واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملئوا البحر إن أردتم سفينا واملئوا الجو إن أردتم رجوما
وأقيموا للعسف فى كل شبر (كنستبلاً) بالسوط يفرى الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصر أو ترونا فى الترب عظما رميما

دنا الموت

راعنى فقد شبابى وأنا لا أراع اليوم من فقد مشيبى
حنّ جنباى إلى برد الثرى حيث أنسى من عدوّ وحبيبِ
مضجع لا يشتكى صاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوبِ
لا ولا يسئمه ذاك الذى يسئم الأحياء من عيش رتيبِ
قد وقفنا ستة نبكى على عالم المشرق فى يوم عصيبِ
وقف الخمسة قبلى فمضوا هكذا قبلى وإنى عن قريبِ

ظهر حديثاً

ما فوق مبدأ اللذة

كتاب عميق هام من مؤلفات سيجمند فرويد أنبه من وفق إلى فهم الطبيعة البشرية فى تاريخ الفكر الإنسانى كله ، يعرض الأسس الأولى التى ينبعث منها سلوك الإنسان وما تنطوى عليه جوانحه من ميول المحبة والكراهية . أول ما ينشر باللغة العربية لتصحيح بعض الشائع من نظريات التحليل النفسى .

ترجمه وقدم له

الدكتور إسحق رمزى

أستاذ علم النفس بجامعة إبراهيم

الثمن ٢٥ قرشاً

دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً

ذخائر العرب

الكتاب السابع

طبقات فحول الشعراء

لابن سلام الجمحى

أول ناقد أدبى فى الإسلام

تحقيق وشرح الأستاذ

محمود محمد شاكر

كتاب من أهم المراجع فى النقد والأدب والشعر العربى اعتمد فيه المحقق على أقدم مخطوطة وأوفاها وصدره ببحث عن ابن سلام وكتابه وضمنه شروحاً مبتكرة تجعل من هذا الكتاب ذخراً من أنفس ذخائر العرب .

٧٢٠ صفحة من القطع الكبير فى حلة قشيبة وإخراج أنيق . الثمن ١٠٠ قرش

دار المعارف بمصر